

الخفية في غبطة وارتياح ، وأما أن يتعرض للطبيعة من حوله صامتا وناطقة فيتحدث عن الطير والحيوان وعن النبات والشجر والجماد وسائر ما يدهشنا به الكون من صور ومشاهد متخذاً من هذا المحيط الزاهر مسرحاً بديعاً لخياله الخالق ، وهو في نظريته الداخلية والخارجية لا يقدم للناقد شيئاً غريباً عنه ، فهو إنسان مثله يرى ويحس ويتصور ويحكم ، ولئن ماتته أبداع الصور المنشئة فإديه أبداع المحلل الشارح وقد تكون المقالة النقدية بانسجام بنائها وتسلسل انكارها وإباض لغتها وسر أبحاثها ذات متممة وجدانية لدى المتذوقين .

ولكن أي ناقد الذي يمتعنا بفنه الأدبي كما يمتعنا بنظرة الفكري هذا؟ اننا نقرأ كل يوم في الصحف والمجلات - حتى الرصينة منها - لمصولة تنسم بسمة النقد الظاهرية ولكنها لا تؤدي وظيفته الحقيقية فكم من ناقد يتعرض الى قصة أو ديوان أو مؤلف فلا يلج الى خوافيه ولا ينسر مراميه - مخالفاً أو مؤيداً - بل يكتفي بعرض هام يلم به من يقرأ مقدمة المؤلف في كتابه ، حتى قيل لكل موظف في مجلة أو صحيفة انه يستطيع أن يكون ناقدًا ، وقد يكون عرض أبواب الكتاب والإشارة السريعة الى مضمونه ما يفيد القارئ ببعض الإفادة ولكن صاحب هذا العرض لا يبت الى النقاد بسببوثيق مهما أخذ مظهرهم الخارجي في حديثه ونحن نشعر الآن بانخفاض المستوى الأدبي في التأليف مما كان عليه في حقبة تربية ، ومرد ذلك في بعض أسبابه الى ضحالة النقد الأدبي ، ومقتد الناقد الموجه ، الذي يملك القدرة على التشديد والتوجيه ، وليست الصفات المفروضة في هذا الناقد المسدد بالأمر المعجز ، فهي مما يدخل في طوق نثر من الموهوبين لو تركوا الكسل الوادع ونشطوا السى العمل الديموب .

وأول صفات الناقد الهادف قوة البصيرة المستندة الى الذكاء اللامح ، فهو صاحب الرأي الممتاز في صفة ما تنتجه العقول المتارة من بيان ولا بد أن يجد لديه من النفاذ والعمق ما يسمفه بالتفسير الهادف ، والملاحظة القوية كما يمه برصيد هي من التجربة الفنية والحراية الشخصية بالبواعث والغايات ، ومبلغ ذلك كله من نفسه التي تتوهج بالفكر وتزخر بالمعاطفة والاحساس والتصوير وتلك ذخائر ثمينة يلمسها صاحب الاستعداد الاصيل في نفسه ليتصل بها الى ما يريد من التقييم والتقييم .

وهذه البصيرة المستندة الى الذكاء في حاجة ماسة الى الاطلاع المستمر على أحدث ما يجد من النظريات والآراء الدائرة في محيطه الفني ، لان سعة المعرفة تفتح آفاق النظر وتسلح صاحبها بالسوى عدده الماضية ، وكلما زادت هذه المعرفة منحت جناح صاحبها ريشاً يحلق في آفاقه المتراصة ، وإذا كنا نرى الآن بعض من يدأبون من النقاد على الاطلاع ويحرصون على اقتطاف أشهر الثمار من الحقل العلمي ثم لا يبلغون باطلاعهم الواسع ما يريدون من صدق النقد وكمال التوجيه لذلك لان الاطلاع والواسع وان تنوعت رواعده لا يفيد الناقد اذا عدم البصيرة القوية المستندة الى الذكاء اللامح ، اذ ان هذه المعارف المختلفة الهذية جيدة تنيد الجسم أكبر فائدة ولكن على شريطة ان توجد الانسان القاضمة والمعدة الهاضمة بحيث تتحول الى دم حار قوي ينح الجسم نشاطه ويجدد انسجته وخلاياه بالذنين يمتنون في الاطلاع الدائب دون أن يسلحوا بالذكاء اللامح والخبرة الحسيفة لا يعطون الصورة الامينة للناقد المنشود .

وتأتي بعد قوة البصيرة وسعة الاطلاع صفة ثالثة للناقد الجيد وهي تجرده الخالص من ميوله الذاتية وأهوائه الشخصية بحيث ينسى مصيبيته لما يمتنق من مذاهب حين يتجه الى النص بالنقد اذ ان هذه الميول الخاصة تفسح على الحقائق ستارا يحجب كثيرا من لائها الساطع ، ونحن نعلم ان الانصاف الأدبي خلق عزيز النال لا يرتقى اليه غير ذوي العزم من أصحاب المبادئ النبيلة ولكنه على صعوبة مثاله موجود متحقق لدى قلة تنسم به وتصدر عنه نبيها تدلى به من الاحكام ومن غرائب النفس البشرية ان صاحب التعمصب الذهني قد لا يلتفت في بعض احواله الى تعصبه بل يتجه اليه لا شعوريا تحت تأثير عوامل قوية بعيدة الخفاء في منطقة التأثير الباطني فهو صادق بينه وبين نفسه حين يعلن اليك تجرده النزيه في نقده اذا أردنا بالصدق موافقة النقد للاتجاه الشعوري في رأي الناقد ولكنه غير صادق حين نحلل أعماله الدفينة التي قد يجهلها جهلا تاما لنترك ما التسي التعمصب على عينيه من فحشاء ، وعلى القاريء أن يدرس ناقده دراسة وافية ليملم مذاهبه التي يتمسك بها في مختلف أمانين الرأي من سياسة وأدب واجتماع ما دام يصدر عنها لا محالة ، فالتعمصب الذهني كان ولا يزال مما يضع الحوائل الكئيبة دون الصواب الصريح اذ ان صاحب الاتجاه الديني أو السياسي أو الاجتماعي لا يستطيع التخلص من مبادئه

مجالاً ، بل نريد أن يكون هذا الود الانساني مدعاة الى تفهم الاثر على حقيقته من ناحية وهاملا على قبول المنقود له وانتفاعه بما يحمل من تسديد وتوجيه ، فما أضر بالنقد في حديثه وتديبه غير قوم رأوا الاستعلاء والسيطرة باب المواخظة والنقض فشنوا حربا طاحنة كان الأولى أن تكون مسامرة هادئة حتى لقد وتر عند الناقد أن الشدة العنيفة هي طريقة التصويب والتقييم ، كما انتقلت العدوى الى جمهرة القراء فأخذوا يتابعون أصحاب القسوة المفرطة معجبين ، وقد تعجب حين ترى بعض المتزعمين في ميدان النقد قد نالوا بسلطتهم المفرضة ما لم ينلّه الشرفاء من أبناء الكلية وأرباب الهدوء المتزن وأن كان مع هذه الجمهرة المشفوفة بقسوة النقد قلة منصفة تفر من الضجيج المفتعل ، وتسد أذنيها لدى الفرقة الصاخبة ، وهي طائفة المستنيرين من ذوي النظر البعيد ، ومن الحظ الحسن أن يكون هؤلاء على قلوبهم أداة الترجيح الحقيقية في المعركة إذ يقولون فيسمعون .

ونحن في عصر تقدمت فيه العلوم الإنسانية فتمشبت مروها واتسعت ميادينها وأصبحت تمد المثقف المعاصر بزاد دسم يمينه على النظر الثاقب والفكر الصحيح ، وإذا كان الناقد ملزما كل الأزام أن يلم الماها حسنا بخير ما ينتجه الفكر الانساني من علم وفلسفة ، لتتسع آفاقه الفكرية ، فقد شهدت المارك الأدبية في هذا العهد نقاشا حادا حول صلة هذه العلوم الإنسانية بالنقد المعاصر ، فذهب فريق من الكاتبيين الى تمعيد النقد ودعمه على أسس علمية ترتكز على هذه العلوم بمعنى أن تكون من علوم النفس والاجتماع والجمال أسس صالحة للنظر النقدي إذ أن عالم النفس حين يلم بالنفس الإنسانية ويعلم نوازعها المتباينة وتياراتها المتصارعة وما تسببه المعقد النفسية من صراع ، وما تلبه الغرائز من أهواء وميول فانه يستطيع على ضوء هذه المعرفة النفسية أن يحلل النص الأدبي تحليلا يبرز مكان القوة وأسباب الضعف في جملته وتفصيله ، كما أن عالم الاجتماع حين يرصد موقف الأديب من مجتمعه وأثر المجتمع في تكوين الأديب وتلوين مشاركته ، وتنازع أهوائه فانه يلمس أثر ذلك نميا قدم من إنتاج أدبي ، وربما التمس له بعض العذر في ما يخالف وجهة النظر العامة بعض المخالفة ، وكذلك عالم الجمال الذي درس أصوله وألم بمقاييسه وعرف مدى ما توصل اليه في البحث عن حاسة الجمال وميزان الشيء الجميل فانه بمقاييسه الجمالية يستطيع أن يزن الأثر الأدبي ميزانا علميا لا تميل به النوازع

الفكرية في سهولة مفرطة ليجنح الى الحكم النزيه على اثر أدبي لا يرتضي منحاها وفي تاريخ النقد العربي أمثلة كثيرة لشيوخ يمتنون مذاهب خاصة في الحديث والتقديم تشل عقولهم من التفكير الصحيح ، فهناك من يتمصب للجاهلين وحدهم ، ولا يكاد يفضل غيرهم في مجال الاستشهاد وهناك من يفسح صدره فيهم الإسلاميين والامويين الى دائرة رضاه ويقف موقف السخرية مما أحدثه ادباء العباسية من إنتاج ، كما وجد أيضا من شيوخ النقد القديم من ينزع عنه رداء التمصب ، وينظر الى النص الأدبي نظرة مجردة من التمصب لاتجاه معين يصدر عنه نميا يقول ولعل ابن تينية قد أفصح عن نفسه وعن غيره حين قال في كتابه عن الشعر والشعراء : « ولم أقصد نميا ذكرته من شعر كل شاعر مختارا له سبيل من تلمد أو استحسنت باستحسان غيره ولا نظرت الى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ولا المستأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره بل نظرت بعين العدل الى الفريقين وأعطيت كلا حقه وولمت عليه حظه فاني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم تائله ويضعه موضع متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده الا أنه قيل في زمانه ورأى تائله ، ولم يتصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ولاخص يوما دون قوم بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباداه وجعل كل تقديم منهم حديثا في عصره ، وكل شرف خارجية في أوله ، فقد كان جرير والفرزدق والاخلط يعدون محدثين ، وكان أبو عمرو بن العلاء يقول لقد نبغ هذا المحدث وحسن حتى لقد هممت بروايته ثم صار هؤلاء قديما عندنا ببعده العهد منهم وكذلك من يكون من بعدهم لمن بعدنا كالخريمي والمتابي والحسن بن هانيء فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له واثينا عليه به ولم يرعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه » .

ولابد أن نشير الى صفة رابعة للناقد الجيد وهي الصفاء النفسي الذي يطبعه بطابع الهدوء السوادع ويمنحه اعتدال المزاج ، واطمئنان الأعصاب فلا يثور لمخالفة أو يحتاج لتقيصة بل ينظر الى الأثر نظرة الحكيم العالم بالبواهب المعطوف على الإنسانية في ضلعها وكبوتها ، فهو مع النص المنقود دارس متزن يعرف دواعي القول ، ويلقى صاحبه بابتسامة الود حين يشرح وجهة نظره ويضع نفسه مكانه مصورا ما أشترج في صدره من الاحاسيس حين رسم خلجاته في ما قدم من إنتاج ، ولا نريد بذلك أن ينقلب النقد تقريظا

الخاصة في شيء ، هذا ما ذهب اليه فريق من الباحثين وتطاحنوا من أجله مع فريق آخر يرى أن الدعوة إلى تعميم النقد الأدبي ودعمه على أسس علمية ترتكز على العلوم الإنسانية خطر داهم يحيط بالنقد الأدبي ، لأنه يصرف الناقد عن التذوق الفني الخالص إلى اصطلاحات علمية تلتقي على دراسته ظلمة مبهمة ، لا تساعد على ارتقاء ذوق أو تفهم احساس أذ يرون أن عمل الناقد الأول هو دراسة النص الأدبي وتفسيره في أفق الأدبي المتفوق بحيث يقف الناقد ليسجل خواطره الذاتية محللاً مسرراً دون أن يتعامل بمصطلحات تنف كالصخور الثقيلة في طريق القارئ دون جدوى . هذا بعض ما تنازع حوله الفريقان باذلين جهودهم الشاقة في التدليل والتعليل ، فأصحاب الرأي الأول يرون أن العلوم المختلفة تتشابه وتمتد لتقدم للذهن البشري غذاء يسد نظره وينير طريقه ، ولا بد من الإلمام بها لنصل إلى الحقائق الأدبية دون انحراف ، فإن العصر الحاضر هو عصر الدراسات التجريبية في كل مجال ولا بد أن تطبق هذه الدراسات على الإنسان ليفهم على ضوءها منازع انتاجه وبواهب خواطره ، وذلك مما يدعو إلى تثقيف الناقد تثقيفاً بصيراً ، لترتفع البحوث الأدبية إلى المستوى المنهجي ذي القواعد المضبوطة ، والموازن الدقيقة ، أما الذين يخالفون ذلك لهم في رأي دماء التثقيف العلمي انفعاليون لا يصبرون على بحث بل يسرعون إلى الاستجابة إلى تأثيراتهم السريعة عند القراءة العاجلة مما يدفعهم إلى الشطط في الحكم والانحراف عن الجادة ، ولن يسكت أصحاب الرأي الثاني عن خصوصهم فهبوا يقولون أنهم ينسون وظيفة النقد الحقيقية وهي دراسة النصوص الأدبية ، وتحديد كل معنى وكل لفظ مع إيضاح صلة الإنكار وارتباطها وملاءمة الشكل للمضمون وكل اهتمام للمعارف الإنسانية على هذه الدراسة مما يعمد بالناقد عن ميدانه ، ولنا نقول بعدم جدوى هذه المعارف الإنسانية للناقد فهي توسع مداركه وتفسر غوامضه دون نزاع ، ولكننا نقول أن اهتمامها في النقد مما يطمس بريقه ويضعف تأثيره وهم بذلك يتفنون مع أصحاب الرأي الأول في جدوى هذه الدراسات ككفالة عامة للناقد ، ويختلفون معهم اختلافاً يصل إلى حد الغشوة والعنف في محاولة استخدام مصطلحاتها العلمية وأساليبها النظرية في عملية النقد ذاته ، ونحن

معهم في أن النقد الأدبي يجب ألا تتكرر مشاريعه بهذه التسميات النظرية والمصطلحات العلمية بل يظل في مستواه الفني واضحاً مشرقاً يخاطب الذوق والمعل والمحاكاة دون غشاه ، ولدنيا المثال البارز على نساد التفرع العلمي في مجال النقد الأدبي بما نعرفه من انحدار علوم البلاغة في جهودها الأخيرة على يد العقنيين من أمثال السكاكي والقزويني والسعد وغيرهم ممن جانب مذهب عبد القاهر في الاستشفاف الذاتي المستند إلى الموهبة البيانية والخبرة الأدبية إذ أن هؤلاء العقنيين جعلوا من بحوث البلاغة الأدبية مجالاً للمنطق والفلسفة ثم خلف من بعدهم خلف نظر إلى هذه المباحث نظرة الماكرة والتبرير مختصت البلاغة خنقاً فيما كتبه من متون وحواش وتقريرات؟ فالرأي الفصل فيما نشب من حراك حول هذه العلوم الإنسانية أن يلم بها الناقد المأما يزيد من ثقافته ومهته على أن يعتمد عليها كل الإبتعاد في مجال التطبيق الأدبي إذ يقف أمام النص الفني وجهاً لوجه دون ستار، وقد ذهب معارضو اهتمام هذه النظريات العلمية في مجال النقد الأدبي إلى الاستشهاد بأقوال أساطين النقد الأوربي مثل لانسون الفرنسي حين يقول فيما ترجمه عنه الدكتور محمد مندور « أن الاصطلاح العلمي عندما ننقله في الأدب لا يلقي غير ضوء كاذب ، بل يحدث أن يلقي ظلمة ، وأمن في الروح العلمية موقف أولئك الأدباء الذين لا يدعون بناء أي شيء على نموذج غيره ، بل يتصرفون همهم على رؤية الوقائع الداخلة في مجال بحثهم ، والمثور على العبارات التي لا تخلف شيئاً خارجاً عنها ولا تضيف إليها إلا أقل ما يمكن والشيء الذي يجب أن نأخذه من العلم ليس كما قال مردريك وهو هذه الوسيلة أو تلك بل روحه » . وإذا كان الدكتور محمد مندور في طليعة من نادوا بالابتعاد عن اهتمام العلوم الإنسانية في مجال النقد الأدبي فقد أيد وجهته بما ترجمه من أساتذة النقد في فرنسا من مقالات وكتب تناقش هذه المسائل ، كما لم ينس إجداده العرب حين بحث من أقوالهم المتصلة بهذا الموضوع فنقل من ابن قتيبة قوله في مقدمة « أدب الكاتب » (1). ولو أن هذا المعجب بنفسه الزاري على الإسلام برأيه نظر من جهة النظر لاحتباه الله بنور الهدى وثلج اليقين ، ولكنه طال عليه أن ينظر في علم الكتاب وأخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته وفي علوم العرب ولغاتها وآدابها

(1) النقد المنهجي عند العرب لمندور ص 27 - النقد المنهجي ص 115 .

وبراعة اللفظ يزيد المعنى المكشوف بهاء وحسنا ورونقا حتى كأنه أحدث فيه غرابة لم تكن وزيادة لم تعهد وذلك مذهب البحثري .

وواضح أن الأمدي يتحدث هنا عن الشاعر لا عن الناقد وقد يظن ظان أن الاستشهاد في غير موضعه ؛ ولكننا نقول أن النقد الأدبي في حقيقته الأصلية - عمل أدبي كالشعر ، وكاتب النقد كناظم القصيدة يجب أن يقدم نقده واضحا شافيا بعيدا عن غموض العويص من اللغة والدقيق من المصطلحات ؛ وإذا كان للشاعر أن يتشقق بالدراسات الإنسانية كما يتشقق الناقد فان مصطلحات هذه الدراسة لا يجوز أن تنتقل إلى القصيدة الشعرية كما لا يجوز أن تنتقل إلى الكتابة النقدية سواء بسواء .

وإذا كنا نعرف أن النقد الأدبي يقوم على الذوق المستشف البصير بمراتي النبوغ ومهاوي الضعف في الأثر الأدبي ، فليس لكل قارئ أن يقيم من ذوقه الخاص ناقدا يصدر الأحكام الأدبية ويوزعها ذات الشمال وذات اليمين كما يشاء ، ولكن صاحب الاستعداد الفطري بالطبيعة والمكتسب بالقراءة والموازنة وسعة الخبرة هو الذي يستطيع النفاذ إلى النص الأدبي تحليلا وتفسيرا وحكما ، وهو القادر على أن يندمج فيها يقرأ اندماجا يوحي له بكل ما يمين من تقدير أو مؤاخذة ، مستعينا بعاطفته ومقله وحسه على أداء وظيفته النقدية ومستجيبا إلى هوائه نفسه فيما توحي به من ارتياح أو نفور ، ولحق ما أدى إليه تمرسه الطويل ومزاويلته المستمرة في محيط العمل الفني لذوق الناقد لا يقف به عند مجرد الاستحسان أو الاستهجان بل يهديه إلى حيثيات ما يصدر من حكم يكن وراءه الذهن الصافي والقرينة الخصبة والحس المتيقظ لادق الخلجات وأبعد اللوامح ، ونقد يخالف الناقد الذواقة زميله الذواقي في حكم ، ويكون كلاهما صحيح النظرة سليم الاتجاه لأن الطلية الأدبية تتسع لاكثر من اتجاه ، ولأن الطبيعة البشرية تفرق في مدى الاستجابة وقوة الإيهام ولحق ما لايس الناقد من خبرات قد تختلف في بعض تجاربيها من خبرات زميله، ومن هنا نجد الناقدين الكبيرين يحكمان على القصيدة أو المسرحية أو المقالة بما قد تفرق به الاتجاهات ، ومن البعيد أن يبلغ الاختلاف بينهما درجة التفساد والتباين وأن وقع ذلك فهو من الندرة بحيث لا يمثل قاعدة مطردة إذ أن المسلم به أنه توجد مع عوامل الخلاف عوامل أخرى للاتفاق تحول دون التضاد الصريح ، إنما يكون هذا الاختلاف بين الناقدين

مغضب لذلك وعاداه وانحرف عنه إلى علم قد سلمه له ولأمثاله المسلمون وقتل فيه المناظرون له ، ترجمة تروق بلا معنى ، واسم يهول بلا جسم لماذا سمع الغمر والحدث الغر قوله ، الكون والفساد ، وسمع الكيان والاسماء المفردة والكيفية والكمية والزمان والدليل والاختبار المؤلفة ، راعه ما سمع وظن تحت هذه الالتاب كل فائدة ولطيفة لماذا طابمها لم يحل منها بطائل إنما هو الجوهر يقوم بنفسه ، والمعرض لا يقوم بنفسه ، ورأس الخط التمتلة ، والتتملة لا تقسم ، والكلام أربعة ، أمر وخبر واستخبار ورغبة . ثلاثة لا يدخلها الصدق والكذب وهي الأمر والاستخبار والرغبة وواحد يدخله الصدق والكذب وهو الخبر . والآن حد الزمانين مع هذين كثير ، والخبر ينقسم إلى تسعة آلاف وكذا وكذا مائة من الوجوه ، لماذا أراد المتكلم أن يستعمل بعض تلك الوجوه في كلامه كانت وبالا على لفظه وتيدا للسانه وعيا في المحائل وغفلة عند المتناظرين » ، ولن نعلق على نقل الدكتور مندور عن ابن قتيبة بشيء سوى أن صاحب « ادب الكاتب » قد ذكر ما يدور من اصطلاحات العلوم في عصره مما تداوله علماء المنطق والفلسفة والكلام من أمثال الجوهر والمعرض والكيف والكمية ، ولكل عصر مصطلحاته وتواعده ، فما يذكر اليوم من مصطلحات علوم النفس والاجتماع والجمال شبيه بما دار في عصر ابن قتيبة من غوامض التعريفات ولم يكتف الدكتور مندور بقول ابن قتيبة بل عززه بما ذكره أبو القاسم الأمدي في الموازنة بين الطائيين حيث قال بعد نقل متشعب :

« وإذا كانت طريقة الشاعر غير هذه الطريقة - طريقة السهولة والوضوح - وكانت عبارته مقصرة عنها ولسانه غير مدرك لما يعتمد دقيق المعاني من فلسفة يونان وحكمة الهند ، أو ادب الفرس ، ويكون أكثر ما يورده منها بالفاظ متعسفة ونسج مضطرب ، وإن اتفق في تضاعيف ذلك شيء من صحيح الوصف وسليمه قلنا له قد جئت بحكمة وفلسفة ومعان لطيفة حسنة فإن شئت دهونك حكيما أو سمينك فيلسوفا ولكن لا نسبيك شاعرا ولا ندعوك أديبا لأن طريقتك ليست على طريقة العرب ولا على مذاهبهم فإن سمينك بذلك لم نلحك بدرجة البلغاء ولا المحسنين الفصحاء ، وينبغي أن تعلم أن سوء التأليف وردى اللفظ يذهب بطلاوة المعنى الدقيق وينسده ويمحيه حتى يحتاج مستمعه إلى تأمل وهذا مذهب أبي تمام في معظم شعره ، وحسن التأليف

مداد علم البيان على حكم الذوق السليم الذي هو
انفع من ذوق التلميم ، وهذا الكتاب وان كان ليس
يمليه عليك استاذاً واذا سئلت مما ينفع به قيل لك
هذا ، فان الدربة والادمان اجدي عليك نفعا ، واهدي
بصرا وسعما ، وهما يريانك الخبر عيانا ويجعلان
مسرك من القول امكانا ، وكل جارحة منك قلبا
ولسانا ، فخذ من هذا الكتاب ما اعطاك واستنبط
بادماتك ما اخطاك ، وما مثلي فيما جهده لك من هذه
الطريق الا كمن طبع سينا ووضعها في يمينك لتقاتل به ،
وليس عليه ان يخلق لك قلبا فان حمل النصال غير
مباشرة القتال .

هذه خطرات امهد بها للحديث عن النقد العربي
في اطواره المتعاقبة لنعطى القارئ اضاء تهديه في
ارتداد طريق ممتدة الشعاب ، وهي بعد خلاصة
مركزة لبعض ما يدور حول هذا الفن من آراء تشغل
النقد والناقدين .

الكبيرين غالبا في درجة الحكم ونسبته فهو يترجح بين
الحسن والاحسن او الجيد والاجود او الضعيف
والاضعف ، وهذا حين يكون النقد غنيا تائريا لا مذهبيا
مقائدا حيث يلتزم الناقد باتجاه ديني او اجتماعي او
سياسي يدعو اليه ، فمن الممكن اذن ان يصل الخلاف
بين الناقدتين الى درجة التضاد ، ومن حسن الحظ ان
النفوس اصبحت تفتق بالنقد المذهبي في مجال الادب
الخالص ، وتراه عامل تعصب لا يهدف الى الحكم
المجرد التزيه انما النقد ذوق خالص مفتوح يستوحى
النص دون تقيد او تضيق ، وهذا الذوق هبة عليا
تمنح لذوي المواهب وتصل بالقراءة والنظر والتمرس
البصير ، ويهمننا ان ننقل عن ناقد عربي كبير رأيه
الخاص في تقدير الذوق الموهوب وارتكاز النقد الادبي
عليه ارتكازا يجعل كل تعليم دائب لا يكاد يفني عنه
شيئا ذلك هو ضياء الدين بن الاثير حيث يقول في
مقدمة « المثل السائر » « اعلم ايها الناظر في كتابي ان

الحضارة الإسلامية

بين الماضي... والمستقبل (١)

الأستاذ أحمد عبد الرحيم سايح " القاقره "

إذا كان ابن خلدون قد بلور هذا المعنى التاريخي واعتبر الحضارة غاية العمران فان مفهوم الحضارة في العصر الحاضر قد امتد الى الوان من المعنى ، هي ابعد واوسع مما رآه ابن خلدون في عصره ، وفي بيئته العربية في انتقالها الاجتماعي والسياسي والمدني من البادية الى الحضرة .

ولئن كان بعض العرب القدامى قد استعملوا لفظ « مدني » بمعنى « اجتماعي » فان مفهومها آخر ظهر واتصل بها ، اصبح الآن يعرف باسم المدنية .

وابن خلدون نفسه كان سابقا ايضا في هذا المجال اللفظي فاستعمل كلمة « التمدن » وكان يعني بها « التحضر » .

على ان تلك المفاهيم اللغوية انما نشأت في بيئة عربية كانت حياة الحضرة فيها تقابل حياة البادية . ولكن هذه الحالة من التقابل لا تكاد توجد بصورتها التقليدية الا في جهات قليلة جدا خارج العالم العربي .

ولذلك فان لفظ الحضارة في مفهومه العالي ومفهومه الحديث المعاصر بصفة خاصة قد اصبح اكثر اتساعا مما كان يدل عليه في مفهومه اللغوي والتقليدي واذا كان اصل معنى الحضارة « بفتح الحاء وكسرهما » الإقامة في الحضرة . فان المعاجم اللغوية الحديثة تعرف الحضارة في استعمالها المولد

بمناز الاسلام بانه دين الحضارة الانسانية الكاملة : بمعنى انه كان منذ نزوله دين عبادة ودين معاملة .

وانه انشا لونا من الحضارة عرف باسمه . وهو الحضارة الاسلامية .

ومفهوم كلمة الحضارة مفهوم تطور مع الزمن لاسيما في تاريخ الحياة العربية الاسلامية . والمفهوم الاصيل لكلمة الحضارة في اللغة العربية انها : -

تعنى حياة الحضرة والإقامة الثابتة في المدن والقرى وعكسها البداوة . وهي حياة التنقل من البادية . ولقد عرف العرب الفارق بين حياة البادية وحياة الحضرة منذ كانت بادية وكان حضر .

وكان اول من تصدى لهذا التمييز على أساس من الدراسة والتسجيل والتحليل العلمي هو العلامة عبد الرحمن بن خلدون . بل ان هذا العالم العربي هو اول من عالج شؤون الحضارة بطريقة علمية تحليلية .

على انه اذا كان ابن خلدون قد بلور مفهوم الحضارة عند العرب على انها ذلك النمط من الحياة المستقرة . والذي يناقض في مفهومه البداوة . فينشئ القرى والمدن ويضفي على اصحابها فنونا منتظمة من العيش والعمل والاجتماع والمسلم والصناعة وادارة شؤون الحياة .

المطاء بانها : مظاهر الرقي العلمي والفني والادبي والاجتماعي والاقتصادي في الحضرة .

وقد يكون من المفيد معرفة مفهوم لفظيتين آخرين لهما في الحياة الانسانية شان كبير والسر واضح . وهما : الثقافة والمدنية .

فاصل مادة التشكييف في اللغة العربية : التشذيب والتهديب والتقويم والحدق والفظانة والمعاجم اللغوية تعرفها في الاستعمال المحدث بانها : العلوم والمعارف ، والفنون التي يطلب الحدق فيها . ونستطيع ان نقول انها : تشمل كل ما يتصل بالروح والفكر والعقل والدوق والشاعر ، وهي حصينة الحياة الانسانية في مجالات الحياة كلها . وتجمع انماط الحياة الروحية والفكرية واللغوية والادبية والفنية . ولها صورها التي تتعدد وتتلاقى بين الشعوب والتي يتصل بعضها بشراك للانسانية مشترك ، ويتصل بعضها الاخر بحياة جماعات بلدانها دون سواها .

ومادة مدن وتمدن متصلة بالمدينة والعيش فيها والاخذ باسباب الحضارة وقد اتصل لفظ المدينة في المفاهيم الجارية بالجانب المادي والمظهري من الحياة . وذلك من حيث مقوماتها الطبيعية ومنشأتها المموسة .

وكذلك من حيث الانماط الميشية في اسسها المادية . وفي صورها المحسوسة في حياة المجتمع . وما يتصل بهذه المظاهر المادية والمحسوسة في حياة الجماعة من قواعد ونظم وامراف .

والحضارة بمفهومها الحديث هي : الحصيلة الشاملة للفنية والثقافة ومجموع الحياة في صورها وانماطها المادية والمعنوية .

وبعبارة اخرى هي : الخطة المريضة التي يسير فيها تاريخ كل شعب من الشعوب على الارض ومنها الحضارات القديمة والحضارات الحديثة والمعاصرة ومنها الاطوار الحضارية الكبرى التي تصور انتقال الإنسان او الجماعات الخاصة من مرحلة الى مرحلة .

ولئن كان الاسلام قد امتاز بانها دين الحضارة الانسانية من حيث تقييس حرية الفكر ، واهزاز حرية الانسان وكرامته . وتشجيع المعرفة والنظام والمساواة بين الناس في ظلال آحاء شامل ، وحصل

نام وروحانية صالحة واهتزاز بالمثل العليا والقيم الاخلاقية الرفيعة .

فان واقع الامر يبين للدارس والباحث والمفكر ان الحضارة الاسلامية استمدت مقوماتها ومناصرها ووجودها واسباب نمائها من الاسلام ذاته .

واذا كان ظهور الاسلام قد سبق في الجزيرة العربية وما جاورها حضارات اقدم منه . كما سبقته ايضا في البلاد التي انتشر فيها الوان من الحضارات القديمة ذات الطابع المحلي او الاقليمي .

فان الاسلام يعطيته الذاتية استطاع ان يصفي على البلاد التي شملها لونا مشتركا من الفكر الديني والحياة والمعاملات والعلاقات الانسانية الاجتماعية والسياسية والثقافية والاقتصادية حتى اصبح هناك قدر حضاري مشترك بين المسلمين فسي مختلف الاقطار وبلاد الدنيا .

دعائم الحضارة الاسلامية :

(1) ان الاسلام قد انطوى على طاقة روحية جعلت منه قوة فاعلة بل ان فاعليته في هذه الناحية شملت حياة الافراد والجماعات من جميع الجوانب . فهي ثورة روحية وثورة في العبادة والنفوس وثورة في الحياة العممية والمعاملات . وثورة في النظم الاجتماعية بل وفي نظم الحكم وصلة الحاكم بالحكوم وكذلك في تشريعات الجماعة والاسرة .

والشيء المهم في هذه القوة الفاعلة انها كانت اصلاحا جذريا يمس اساس الاوضاع في حياة الناس .

(2) ان الاسلام كان منذ يومه الاول دين دعوة له رسالة يجب على المسام ان يبلغها الى الناس كافة . وكانت حياة الشعوب واتصالاتها قد اهلتها لان تتلقى الرسالة الالهية التي فرضت على اصحابها ان يبشروا بها بين الناس شرقا وغربا .

وفكرة الدعوة في العقيدة الاسلامية قد واتتها ظروف الانتشار في النطاق العالمي وبالتالي تمكن الاسلام من ان يبشر طابعه الحضاري كعقيدة وكنمط للحياة .

(3) كان الاسلام ديننا سهلا غير معقد ولا مركب في عقيدته ونظمه وتمامه وكان في الوقت

ذاته ، دينا مباشرا يتصل فيه الانسان بخالقه دون وساطة .

قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : « اذا سألت فاسأل الله واذا استعنت فاستعن بالله » وقد كانت البساطة فى العقيدة الاسلامية شاملة للعبادات ، والمعاملات جميعا .

وما نظن دينا يطلب الى الفرد شهادة ايسر من شهادة الاسلام على عمقها وعظمتها « لا اله الا الله محمد رسول الله » عبارة سهلة رائعة تقف بالانسان على عتبة الاسلام موقفا سهلا .

وكانت القاعدة الثابتة لدى من بشر بالاسلام ، ان الدين يسر لا عسر « ومن هنا كان الاطمئنان الروحي والفكري اول ما يستشعره من يدخل فى دين الله خصوصا وان اعتناق العقيدة كان لا بد ان يأتى مباشرة دون وساطة او وكالة . على انه من الحق ان نذكر ان هذه البساطة لم تنته بالضرورة الى ذلك القدر من المرونة الذى قد يشوه التطبيق .

ولعل المقوم الاصيل الذى لم يجعل البساطة تنقلب الى مرونة مشوهة ، هو ان القروان كان وعاء للعقيدة كلها . حفظها على مر العصور واضفى عليها الطابع المشترك فى مختلف البيئات وتحت مختلف الظروف .

(4) كان الاسلام دينا رحبا يقبل الاجتهاد ، ويدعو اليه فى حدود اصول العقيدة . وكان يدعو الى سبيل العقل كما يدعو الى سبيل الضمير والحق . ومن هنا كانت الدعوة الى النظر الى المعرفة اساسا من اسس الدعوة الاسلامية وكان التفتح البصير مفتاح الدعوة الحضارية .

والاسلام فى رحابته الحضارية استطاع ان يمتص ألوان الحضارة فى البلاد التى انتقل اليها وان يسبغ عليها طابعا اسلاميا شاملا .

(5) كان الاسلام دينا للدنيا والاخرة معا وفى هذا قد اختلف عن كثير من الديانات والعقائد التى ينبع بعضها فى ماديات الحياة ثم يضي عليها مسحة من العبادة او الفلسفة ويتبع بعضها الآخر فى مجال الروحية التجريدية .

وقد ترتب على ما اصف به الاسلام من جمع بين الروح والمادة انه اصبح دينا رحبا حيا يلائم حياة الناس ومنطق التطور . كذلك اصبح الاسلام

اكثر التصاقا بالحياة فى مفهومها الحقيقي وصورتها الواقعية . وفى الوقت ذاته اصبحت العقيدة على اتصال دائم بالبناء الحضاري فى مجال المدنية من جهة والثقافية والروحية والعقلية بل والاجتماعية من جهة اخرى .

(6) كان الاسلام دين قيم وضوابط سلوكية مادية ومعنوية . وهذه القيم يتصل بعضها بحياة الافراد ويتصل بعضها الآخر بحياة الجماعات .

فالاسلام اعطى نظاما متكاملا للحياة سواء من وجهة نظر الفرد ام من وجهة نظر الجماعة . وهذا النظام شمل علاقات الافراد وكثيرا من نواحي الحكم ذاته .

وقد يكون من ابرز القيم التى استند اليها نظام الحياة الاسلامية فكرة القيمة الدائمة للانسان . واستنادها الى فكرة المسؤولية الفردية « كل نفس بما كسبت رهينة » « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » ثم فكرة الاخاء التى تجعل الانسان المسلم ينتمي الى جماعة المسلمين ويحس بأنه مضمون من امضاء الجماعة المسماة بعمل مصلحة الجماعة والجماعة تسمى للارتفاع بمستوى الفرد . فهو جزء من كل يكمله ويكتمل به ويعطيه ويأخذ منه ويحميه ويحتمي به .

وليس فى الاسلام انفصال بين مسؤولية الفرد نحو المجتمع ومسؤولية المجتمع نحو الفرد لان هاتين المسؤوليتين هما اولى وسائل الاسلام فى اصلاح الانسانى العام .

والاسلام من ناحية اخرى اعترف بالقيمة الدائمة للافراد باعتبارهم مدنيين بوجودهم لله مسئولين امامه عن اعمالهم « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم » والاسلام حينما جعل الفرد مسئولا عن اعماله والمسؤولية - هنا تقع عليه وحده - الاسلام جعل ذلك ليرفع من قيمة الانسان الذاتية ويوصل به الى اعمال الخير والقدرة على الدفع والبناء . وفى الوقت نفسه الانسان لبنة من لبنات المجتمع الانسانى يعمل لمصلحة الجميع .

والاسلام لا يعترف بالفهرية التى يدمج بها الفرد فى المجتمع قسرا ورغمما منه كما فى الشيوعية لان الشيوعية من الوجهتين العملية والنظرية تستغني عن الفرد ان لم يخدم فرض الدولة او ان لم يتبع طريقة الحرب دون تقاضى .

7) البيئة بعواملها المحلية وموقعها الجغرافي قد ساعدت على إعطاء الحضارة الإسلامية ما كان لها من طابع ومن مكانة . ولقد كانت الجزيرة العربية ذاتها منطقة وصل بين أطراف العالم عند ملتقى القارات الثلاث في العالم القديم . ومن شواطئها تمتد بحار الشمال بإدلة بالبحر المتوسط ، وبحار الجنوب بإدلة بالبحر الأحمر والخليج العربي . وقد كان عدم اتصال المياه بين الشمال والجنوب سببا في أن شبه جزيرة العرب كانت نقطة تغيير في وسائل المواصلات وفي ظهور دور الوساطة الذي كتب للعرب أن يقوموا به ولم يكن الأمر في ذلك بالطبع مجرد التوسط الجغرافي على أهميته . وإنما كان الأمر أوسع وأعمق .

فهو توسط من ناحية الطبيعة البشرية ، ومن ناحية السنوك الانساني ، ومن ناحية الاعتدال ، في كل ما يتصل بالمادة والمعنى في الحياة . وهي أمور اتصلت كلها بطبيعة البيئة العربية . ومن هذه البيئة الوسط انتشر الإسلام شرقا وغربا بالبر والبحر على حد سواء .

8) القرآن الكريم ذاته وذلك أن القرآن لم يكن كتاب دين ، بحث على العبادة والتوحيد . وما يتبعها من عقائد ومبادئ وأوامر ونواهي ، كان دستوراً من أعظم الدساتير الصالحة التي عرفتها الإنسانية في تاريخها الطويل الممتد عبر الزمن وذلك بما تضمنه من القواعد الرصينة الكفيلة بقيام المجتمع الانساني السليم .

ولقد كان أول اثر من آثار القرآن في الفكر الانساني اهتمامه الواسع بالعلم وذلك أن العلم اساس التقدم ومرآة نهضة الأمم وعنوان حضارتها . وقد كانت عنابة القرآن بالعلم تفوق حد الوصف ، تأمل القرآن وتدبر آياته تجده يدعو الى تحكيم العقل والمنطق في مظاهر الكون واحداث الماضي . والقرآن نفسه مشتق من القراءة والقراءة أدنى مفاتيح العلم للانسان وأول ما نزل على محمد عندما كان يتحدث في غار حراء خمس آيات هي قوله تعالى « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم » .

ففي هذه الآيات الخمس بدأ الوحي الالهي بالقراءة في أول آية وكررها مرة أخرى في الآية

الثالثة وأوضحها مؤكدا ما رمى اليه من معنى وهو التعليم وراد التأكيد بذكر القلم ثم لفت النظر الى الاصل الذي خلق الله منه الانسان وهو العلق وفي قوله تعالى « علم الانسان ما لم يعلم » ما فيه من مكنون اسرار هذا الكون مما سيمر به الانسان عبر مسيرته في هذه الحياة وحتى نهايتها .

وأول قسم في القرآن اقسام به رب العزة في ثاني آية نزلت بعد الامر بالقراءة صدر بحرف من حروف الهجاء وكان بالقلم وبما يسطر العالمون « ان والقلم وما يسطرون » فأول سورة نزلت من القرآن سورة العلق ومن العلق يخلق الانسان وكانت السورة التالية في النزول بسورة العلق هي سورة القلم « والقلم يكتب ويتعلم الانسان » .

فانسانية الانسان لا تكون الا بالخلق ولا تتم الا بالعلم « الرحمن علم القرآن ، خلق الانسان عنمه البيان » .

وما الطف قول الشاعر :

إذا افتخر الإبطال يوماً بسيفهم
وعدوه مما يكسب المجد والكرم
كفى قلم الكتاب مجداً ورفعة
مدى الدهر ان الله أقسم بالقلم

والقرآن دائما يهتف بالانسانية « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » والقرآن يرفض ان يقف بالعلم عند حد بل يفتح للانسانية باحة ليس لها نهاية .

ولقد وضع الإسلام القواعد السليمة لوزن المعلومات . وتمييز صحيحها من زائفها فقرر ان المسائل لا تأخذ طابعا علميا ولا ترتقى الى درجة معلومات الا اذا قامت عليها بيئة واستندت الى دليل ومن ثم كان القرآن ينادي دائما « هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » ، « هل عندكم من علم فتخرجوه » « اثبوتني بكتاب من قبل هذا أو اشارة من علم » « ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا » .

وهذه الآية الاخيرة تنهى عن اتباع ما لم يقم به علم يستند الى حجة سمعية أو رؤية بصرية أو براهين عقلية وهي طرق الاستدلال التي تنحصر في العقليات والسمعيات والمحسوسات .

وهذا الميزان الذي وضعه الاسلام يدفع الناس دفعا الى تلمس الادلة . ويمشي بهم في طريق النور والمعرفة ومظاهر الكون والرفي .

ولقد دعا الاسلام الناس ان يمعنوا فكرهم في هذا الكون الفسيح وينموا النظر فيما حوى من عجائب ، ليستفلوا ما حواه من موارد ويستكنهوا اسراره واسباب الحياة فيه قال تعالى « قل سيروا في الارض فانظروا كيف بدأ الخلق » .

وقال تعالى « قل انظروا ماذا في السماوات والارض » ولم يكتف القران بهذا بل ردد كلمة العلم (بجميع اشتقاقاتها وتصريفها في سورة وآياته زهاء سبعمائة وخمس وستين مرة وهذا وحده يكفي لتقدير منزلة التي رفع القران « العلم » اليها . وكلمة العلم في الاسلام عامة تشمل مختلف قطاعاته وتعدد اغراضه ومراميه .

وهذا كله دليل على ان الشخصية الانسانية لا يرقىها شيء غير العلم « قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » .

والقران مليء بالايحاءات لتنمية القوى العقلية المفضية الى النظر في البراهين الدالة على قدرته سبحانه وتعالى الداعية الى التفكير والتأمل في هذا الكون العجيب الذي يمتلئ بالظواهر الطبيعية التي تسير في نظام ودقة عجيبين .

(9) اللغة العربية نفسها فهي : من اعرق اللغات العالية منبتا وازها جانبا وافواها جلادة ، وابلفها عبارة واغزرها مادة وادقها تعويها لما يقع تحت الحس ، وتعبيها عما يجول في النفس وذلك لرونتها على الاشتقاق ، وقبولها للتهذيب ، وسعة صدرها للتعريب

نزل القران الكريم بلسانها فجعلها اكثر رسوخا واشد بنيانا والقوى استقرارا وبفصل القران صارت ابعاد اللغات مدى واوسعها الفقا واندرها على النهوض بتبعاتها الحضارية عبر التطور الدائم الذي تعيشه الانسانية .

واستطاعت في ظل عالمية الاسلام ، ان تتسع لتحيط بابعد انطلاقات وترتفع حتى تصل ارقى اختلاجات النفس .

فليس هنالك معنى من المعاني ولا فكر من الافكار ولا عاطفة من العواطف ولا نظرية من النظريات تعجز اللغة العربية عن تصويره بالاحرف والكلمات تصويها صحيحا هي المقاطع واضح السمات بارز القسامات .

هذه اللغة فتحت صدرها لتراث الانسانية الغالدة ومعارف البشرية الرائعة كما اسمت لمقومات الامة الانسانية الاسلامية التي شرفت بالحضارة وغربت .

برزت الى الوجود قوية تتمتع بقوة لفة بالفة اشدها ، فما عرف التاريخ لها طفولة وما بدت الا لتكون لسان الحضارة الاسلامية في ظلال القران .

ولقد اشترك مع اللغة العربية لغتان اخريان يكونهما لغتين عموميتين لانكار دينية ومقائدية ومذاهب سياسية انتشرت بين شعوب مختلفة : وهاتان اللغتان هما اللغة اليونانية واللغة اللاتينية .

فقد كانت اللغة اليونانية تستعمل مسن « كمبانيا » في ايطاليا الجنوبية الى الجزر البريطانية ومن نهر الراين الى جبل الاطلس .

واستعملت اليونانية من اقاصي صقلية الى شاطيء دجلة ومن البحر الاسود الى تخوم الحبشة لكن ما اضيق ذلك الانتشار اذا ما قوبل بانتشار العربية التي امتدت الى اسبانيا وافريقيا حتى خط الاستواء وجنوب اسيا وشمالها الى ما وراء بلاد التتار فقد استولت لفة العرب الكتابية على جميع انحاء الشرق الاسلامي .

لقد اتمت اليونانية واللاتينية في صف اللغات الميتة منذ هبطت مدينتاهما فما الذي حفظ اللغة العربية حية ؟

قالت الكاتبة « مي » ان الذي كان باعثا على قيام الحضارة العربية الاسلامية هو الذي ما زال حافظها الى اليوم وهو القران، لقد كان الاسلام يرمي الى التوحيد سواء في الدين والسياسة واللغة .

لذا ستظل اللغة العربية حية ما دام الاسلام حيا فمن ذا الذي لا يعرف للقران فضله في بقاء اللغة العربية حية ؟ ومن ذا الذي يجهل ان اللغة العربية بالفة ما بقي الاسلام ؟ من ذا الذي لا يعترف بما ادته هذه اللغة من خدمة للانسانية وبانها كانت الصلة الوحيدة بين حضارات الماضي وحضارات اليوم .

لقد اندثرت جميع اخواتها السامية من ارامية وكنعانية وكلدانية وسريانية واشورية وغيرها في حين بقيت هي على رغم ما مر بها من عصور الركود وما نشأت نفيض قوة وحيوية .

انها الرابطة النفسية التي تربط بين اهل البلاد والصيغة الجميلة التي تودعها مكوناتها العقول والقلوب جيلا بعد جيل .

هذه اللغة وسمت مباديء ومثلا مليا لم تضق بها ولم تنكلم من احتمال ابيائها بل في ظل حضارة الاسلام مرتت وامتصت وتفاعلت ونمت نماها الطبيعي المتطور من داخلها وهضمت خلاياها القوية كل ما قدم لها من خارج محيطها حتى تعطلت واتسعت آفاقها وانتشرت ظلالها وقضت في دورانها العظيم على كل ما يقف في طريق انبعاثها وتفوقها وكل ما يعرقل انطلاقها ويثقل اجنحتها من التحليق والارتفاع واستطاعت بقوتها الدائبة ان تقشع اللهجات الغامضة وتخرج من كل جولة - جالتهافي صراع - بغذاء مفيد ودماء جديدة وقدرة فائقة وطاقة خلاقة .

هذه اللغة دعمها القردان اذ اخذت تفرض سلطانها في بيئات جديدة في اقطار الارض ولم تمض حقب طويلة حتى غدت لغة الشعوب من اواسط اسيا حتى جبال البرانس في شمال اسبانيا ولم تستطع لغة من لغات هذه البيئات ان تثبت لها او تحول بينها وبين سيادتها .

وقد يكون من اسباب ذلك انها لغة القردان وقد يكون من اسباب قوتها وجمالها الفني بحيث لم تستطع ان تقف لها لغة من لغات هذه البيئات ومهما تكن الاسباب فانها اصبحت لغة قوية لامم وشعوب قد تختلف وتباين في اجناسها واصل نشاتها ولكنها لا تلبث ان تعيش لها وبها وتحيا فيها حياتها المنوية الادبية والعقلية .

والعربية ما تزال لغة الشرق الاسلامي من الخليج الى المحيط الاطلسي تتوهج جدوتها وترسل اشعتها وشروها الى كل مكان حتى في امريكا تناول منها المهاجرون الى تلك الديار النالية اقباسا لا تزال تضيء في المجلات والانار الادبية .

وواضح انها اجتارت آمادا واحتيايا متطاولة من الزمن وقد المت بها خطوط كثيرة ولكنها وقفت في

طريقها كالصخرة في مجرى السيل يلزم بها ثم يرايلها ، وليس معنى ذلك انها ظلت جامدة لا تتطور بل لقد تطورت اطوارا كثيرة بحكم ما تلقت من ثقافات الفرس واليونان والهند ومصر واسبانيا اللاتينية . فوسعتها جميعا وتمثلتها تمثلا منقطع النظير وكانما اصبحت نهرا كبيرا تتدافع اليه جداول حتى من المعرفة والفكر وهو لا ينحرف ولا يغير وجهته بل يجري هزيرا زاخرا متفتقا مقتحما كل ما يصادفه من حواجز وسدود بين الامم والشعوب ، ولقد وحدت العربية بين هذه الامم والشعوب فاذا هي عالم واحد مهما تداننت وتباعدت ومهما شرفت او هزبت .

لغة كريمة انضجها الزمان المتطاول واخرجتها الفطرة السليمة والاحساس المرهف والادراك النافذ.

لغة تكاد تصور الفاظها مشاهد الطبيعة وتمثل كلماتها خطرات النفوس وتتجلى معانيها في اجراس الالفاظ تتمثل في نبرات الحروف كأنما كلماتها نبضات القلوب ومشاعل الحياة ، فالعاني المحسة والمعقولة مبينة في الفاظ تدرك الفروق الدقيقة بين الاشياء المتشابهة فتضع للشبه لفظا غير ما وضعته لشبيهه ادراكا للفروق الدقيق بينهما فاذا وضمت بعض اللغات للضرب مثلا كلمة واحدة وضمت العربية كلمات تختلف باختلاف مالة الضرب وموضعه من الجسم واذا دلت اللغات على صفات الوجه الانساني مثلا بكلمات مركبة لكل صفة دلت العربية على كل حلية في الانسان وكل صفة في عينيه وحاجبيه وانفه ولحمه واسنانه وغيرها باسماء خاصة وليس هذا مقام التمثيل والتفصيل .

ثم هذا الاحساس الحاد الدقيق المتمثل في المفردات يتجلى في التركيب مدهشا ، فكل كلمة لها في الجملة مكان يحس بها المتكلم وان شئت فقل تحس بها الكلمة نفسها فتعطي او تأخذ صوتا مكافئا لهذه المكانة فالكلمة الاصلية لها اقوى الاصوات وهو الضم والاخرى لها الفتح والجر .

وما هذا الا ضربا من الحياة في الالفاظ والتركيب يبين عن ادق الاحساس والطفه واذا اشتملت اللغات على كلمات هي مادتها ، ففي اللغة العربية مادة وقوالب يستعملها صاحبها حين الحاجة ، فيها مادة ووزن نخذل المادة او اخلقها او استمرها من لغة اخرى ثم صيها في قالب من قوالب الاسماء والانفعال وصورها بالقوالب او الاوزان، فمن سمع

فاعلا او مفعولا ادرك ان هذا الوزن في حركاته وسكناته له معنى يلازمه في المواد كلها وبهذا امتازت العربية واستبان خصائصها حتى نفت من نفسها كل كلمة اجنبية ما لم تخضع لاوزانها وقوانينها وللأسماء اوزان وللانفعال اوزان فما لا يزنه هذه الاوزان فهو اجنبي وبهذا بقيت على الدهر المتناول نقية .

ولقد اختبرها التاريخ الطويل فلم تعجز ولم تمى ولم تصق بكل ما ادركه الانسان من علم وثقافة من صناعة بل وسعت حضارة القرون المتطاولة والامم المختلفة غير كارهة ولا مكرهة .

ولقد اراد الله لها ان تكون لغة كتابه وترجمان وحبه وبلاغ رسالته فاشتملت على العالم الحسي والعقلي مصورا في كلمات ودايات وجوزيت على هذا خلودا ما خلد للانسان عقل وقلب وما استقام له ادراك واحساس .

وتقلب الزمن وتواتت المعن وثارَت الفتن والعربية ثابتة ناضرة وامحت لغات وخلقت لغات وبدلت لغات وحرفت لغات والعربية هي العربية لم تمح ولم تتغير ولم تبدل .

ما آية الخلود بعد هذا ؟

ولم تبق العربية لغة العرب وحدهم بل ثقفتها الامم الاخرى واولتها من العناية والحفاوة اكثر مما اولت لغاتها احيانا فصارت لغة العلوم والآداب للعرب وغير العرب حقا طويلة ما بين أقصى المغرب وأقصى المشرق ولا تزال على تبدل الاحوال وتوالي الغير لغة ادب وعلم في كثير من الامم الاسلامية غير العربية . وما تزال لغات هذه الامم مترمة بالفاظ العربية وما تزال تستمد من العربية الحروف والكلمات .

وقد حوت العربية على مر العصور ادبا لا تحويه لغة ادبا مواطنة ما بين الصين الى بحر الظلمات كما يقول العلماء - وزمانه اربعة عشر قرنا من الزمان .

ولا نعرف في آداب العالم قديمها وحديثها ادبا اتمت به المواطن هذا الاتساع وامتدت به الامصار هذا الامتداد .

انتشرت العربية وحدها بقوتها الخاصة وبقوة الاسلام وقوة القران وبهذا استطاعت العربية ان تكون لغة عالمية لأول مرة في التاريخ الانساني .

ولاول مرة تجد في التاريخ لغة تنتشر بهذه القوة فقد انتشرت اليونانية في جميع البلاد الشرقية ولكنها لم تصل الى اعماق الشعوب ولم تغير لغة من اللغات التي كانت قائمة في تلك الايام في بلاد الشرق ولكن اللغة العربية غلبت كل هذه اللغات قلبتها وتممقت شعوبها .

والرومانيون استطاعوا ان ينشروا اللاتينية في المغرب الاوربي في فرنسا وفي بريطانيا وفي اسبانيا وحاولوا ان يجعلوها لغة منتشرة في شمال افريقيا فلم يفلحوا .

ولكن العربية استطاعت ان تقهر اليونانية في الشرق وان تقهر اللغات الشعبية التي كانت منتشرة في هذه البلاد وان تقهر اللغة الفارسية نفسها ، ثم ان تقهر اللاتينية في المغرب العربي وفي الاندلس وان تصبح هي اللغة العالمية التي يتكلمها الناس في الشرق والغرب جميعا .

هذه اللغة منذ تم لها الانتشار لم تكن لغة حديث فحسب ولكنها كانت لغة حديث ولغة سياسة ولغة ادارة ولغة الدين وكانت في الوقت نفسه لغة التفكير والانتاج الادبي والعصري وفي اقل من قرنين كانت هذه اللغة قد استطاعت ان تسع كل الثقافات التي كانت معروفة في العصور القديمة .

اسافت ثقافة اليونان على سمعتها وعمقها وصعوبتها واسافت فلسفتهم وعقولهم وطبهم وفنونهم .

واسافت ثقافة الفرس وثقافة الهند بعد ذلك الثقافات التي كانت متوارثة بين السامية

فالعربية : اداة الفكر الحي نقل الناس اليها كتب السماء المنزلة مثل التوراة ، والانجيل والزيور وسائر كتب الانبياء من السريانية والبرانية .

ونقلوا اليها ما جاء به الحكماء وسائر ذلك من كتب الفلسفة والطب والنجوم والهندسة والحساب .

(10) وبجانب هذا وذلك كانت هناك مقومات تاريخية وبشرية تتصل بالمصر الذي ظهر فيه الاسلام وانتشرت عقيدته . ثم بالعنصر البشري والتكوين السكاني للمجتمعات الاسلامية .

فاما عن مصر فان الاسلام كان ختام الاديان السماوية وكان بلدا لها من الناحية

التاريخية . كما كان في الوقت ذاته تصحيحا روحيا لصور من الديانات السابقة التي شوهها الزمن . وكان على الاسلام ان يصححها وينقيها ويرد اليها اصالة الفكر التوحيدي .

ولقد كان هذا كله مصدر قوة ودفع للفكر الاسلامي وما اتصل به من حضارة . وكذلك كان الامر بالنسبة لتصدي الاسلام لمعتقدات غير سماوية .

فهذا التصدي كان الحافز الاميل للفكر الاسلامي والنظم الاجتماعية في ان تحتفظ باصالتها من جهة وان تجدد حيويتها وتوسع نطاق رحابها ومرونتها من جهة اخرى .

ومن هنا انطوى التفاعل الاسلامي مع السوان الحضارات التي التقى بها على قوة غلبت كل التحديات فانتشر طابع الحضارة الاسلامية في فعالية لم يعرف لها مثيل .

ومما يذكر ان قوة الاسلام في انتشاره وترسيخ معالم حضارته قد تصاعفت بفعل مقوم انساني آخر عظيم هو تنوع السلالات التي دخلت في الاسلام .

ثم هناك ظاهرة اخرى تربت على كل هذه الجوانب والعوامل وهي ظاهرة الاتصال والاستمرار الزمني في الحضارة الاسلامية .

ان هذه الحضارة تمتاز بان كل مقوماتها الجوهرية تنبع من وحي رسالة السماء التي تمدها بالروح والقوة والتماسك . وتوجهها الى الموازنة بين مقاصد الروح ومطالب البدن والبعد عن الزهد المعطل للعمل وعن المادية الجامحة الفاسدة

فالحضارة الاسلامية :

1 - في نظام عقيدتها تقوم على توحيد الله والفراده بالعبادة والتعظيم والتمسك بما شرع من آداب السلوك والمعاملة .

2 - وفي نظامها السياسي تقوم على الشورى والنزول على رأي الجماعة والمساواة بين الناس واحترام حقوق الانسان والتزود بكل اسباب القوة والمنمة ، والدفاع عن مقدسات العقيدة والوطن .

3 - وفي نظامها الاخلاقي تقوم على خلوص النية ونقاء الضمير والتمسك بقيم الخير والحق

والتزام الآداب الفردية والاجتماعية التي تسير بالانسانية الى الكمال والتقدم

4 - وفي نظامها الاجتماعي تقوم على الاسرة المتماسكة القائمة على ركائز من المودة والرحمة والاخلاص والاحترام والتعاون والتضامن . وقيام كل راع بمسئوليته .

5 - وفي نظامها الاقتصادي تقوم على تبادل المنافع واتخاذ المال وسيلة لا غاية واحترام الملكية الفردية .

6 - وفي نظامها التشريعي ، تقوم على اصول رئيسية واسعة . وقد تمثلت هذه الناحية في ثروة من الفقه الاسلامي . تجلت فيها عبقرية الحضارة الاسلامية وتمثلت فيها حرية الاجتهاد الفكري .

7 - وفي نظامها الثقافي تعتمد على طلب المعرفة ايا كانت واستخدام العقل في كسب المعارف وتسخير الطبيعة لسعادة الفرد والجماعة . وامتياز الثقافة ايا كان مصدرها ومهدا تراثا عاما للانسانية .

8 - وفي نظامها الفكري تقوم على حرية الفكر واستقلال الارادة . فلم تنهض العقول ولم تتحرك الا بعد ان عرفت ان لها حقا في طلب الحقائق

ونستطيع ان نصل الى ان الحضارة الاسلامية:

1 - وصلت بين قديم الحضارات وجديدها بما حفظت من تراث الاقدمين وما اضافت اليه من صنع عبقريتها المبدعة الخلاقة .

2 - انقذت العالم القديم مما كان يمشي فيه من فوضى وانهايار واضطراب في الحضارات واستعباد وظلم اجتماعي .

3 - اعطت العالم حضارة جديدة تقوم على عقيدة التوحيد في اسمى صورها ومجتمعها جديدا يقوم على التعاون والتسامح والحرية والتعايش السلمي بين الجميع

4 - اعطت الانسانية ذخيرة حية ضخمة من المعارف الساد منها الغرب في عصر الاحياء والنهضة ، وامتد عليها العالم الاسلامي في بقلته الحديثة وفي بناء نهضته المعاصرة .

5 - وضعت بعض اصول المنهج العلمي الحديث كطريقة الشك عند الفزالي والاحاطة بجميع جوانب الموضوع ايجابا وسلبا . ولقد جاء في رسائل اخوان الصفا دستور علمي ينحصر في تسعة احكام . وهاهي كما جاءت في الرسالة السابعة :

السؤال الاول هل هو :

يبحث عن وجود الشيء او عن عدمه

السؤال الثاني ما هو :

يبحث عن حقيقة الشيء

السؤال الثالث كم هو :

يبحث في مقدار الشيء

السؤال الرابع كيف هو :

يبحث عن صفة الشيء

السؤال الخامس اي شيء هو :

يبحث عن واحد من الجملة او عن بعض من الكل

السؤال السادس اين هو :

يبحث عن مكان الشيء او عن رتبته

السؤال السابع متى هو :

يبحث عن زمان كون الشيء

السؤال الثامن لم هو :

يبحث عن علة الشيء المعلول

السؤال التاسع من هو :

يبحث عن التعريف للشيء .

6 - فتحت للانسانية وافاقا جديدة في البحوث الانسانية كالفلسفة التاريخ والاجتماع عند ابن خلدون . وعلم البصريين على يد «ابن الهيثم» وابتداء مرحلة جديدة في تطور علوم الرياضة على يد «الخوارزمي» و «عمر الخيام» .

7 - ساعدت بدائها على نهضة الاداب في اوربا وفتحت افاقا جديدة امام شعراء الغرب وكتابه .

8 - ساعد حلفاؤها وقادتها بسلوكهم الاخلاقي وبنماذج المروءة والشرف التي تحلوا بها على اشارة المثل الاخلاقية الرقيقة مما كان قدوة لمن احتك بهم في السلم او في الحرب .

ولقد تلمست اوربا انها حضارة المسلمين العلمية فاستقت من روافدها المعرفة والفلك والجبر والهندسة والكيمياء والطب والفلسفة والزراعة وسائر انواع الفنون الحضارية وبنى رجال اوربا بما تعلموه في معاهد المسلمين بالاندلس وبما نقلوه من علوم اسس النهضة الحديثة التي ظهر نجمها في القرن الثامن عشر وازدهر في القرن التاسع عشر وتالق في القرن العشرين .

والاسلام بدعوته الى العلم هو الذي خرج رجال الحضارة وجهادة العلم واساندة الدنيا وعمالقة العلماء امثال :

ابن الهيثم والكندي والفارابي وابن سينا والبيروني والفرغاني والطوسي والبغدادي والدينوري والرازي والقزويني والانطكي والزهاوي والغافقي والخوارزمي والمصوني وجابر والجاحظ وابن البيطار وابن النفيس وابن حيان وابن حمزة والادريسي والمسعودي وابن بطوطة وابن زهر .

وهذا ابن الهيثم (965 - 1039) يبحث في السهول والادوية ويجول فيها طولا وعرضا حتى يضع قواعد علم الضوء .

وابن الدجياي يسهر على قمم الجبال العالية يحرق في الكواكب والنجوم ليحدد افلاكها ويمرر ابعادها ويقيس محيط الكرة الارضية بالاجهزة الدقيقة .

وابن النفيس يجري التجارب والاختبارات حتى يثبت ان الدم ليس سائلا مستقرا في الاوردة والشرايين المبتوتة في الكائن الحي . بل هو سائل متحرك يدور في جميع اجزاء الجسم وذلك قبل ان يكتشف (هارفي) الدورة الدموية بثلاثة قرون .

وابن مسكويه الذي يسبق فلاسفة اوربا وعلماءها بشمانية قرون في علوم الاخلاق والفلسفة والتهديب والبيولوجيا .

وجابر بن هيان يحلل عناصر الطبيعة وتفاعل المواد المختلطة حتى يضع اصول علم الكيمياء ، وابن يونس يسبق العلماء في اختراع بندول الساعة (الرصاص) .

هذا كله في الوقت الذي كانت اوربا فيه تعيش في ظلمات الجهل والفوضى والهمجية والتأخر ولم يتخذ اوربا من ورطتها التي كانت واقعة فيها الا نور

الاسلام وما زالت اسماء العلماء والمصطلحات التي اعطاها هؤلاء العلماء المسلمون لفرائب العلم ما زالت حية نابضة في جميع اللغات ولم ما نالها من تحريف وتغيير ، ولقد سجل التاريخ آيات هذه الحضارة العربية الاسلامية باعزاز كما شهد لها المنصفون من فلاسفة العالم ومؤرخيه الذين لا ينفون من بحوثهم ودراساتهم الا مرضاة العلم في ذاته . والدين لا تسيطر عليهم المعصية الهوجاء والسطحية العمياء .

واننا نسوق الى العربي بعض النقول التي جاءت على لسان فلاسفة العالم والتي تشهد صراحة وضمننا لمجد الحضارة الاسلامية .

والواقع ان الاسلام ليس في حاجة الى اقوال هؤلاء فهو قوي بذاته لكننا ناتي بها لما نراه من ان كثيرا من كتابنا ومؤرخينا يطمطون حق حضارة العرب . وان شئت بعبارة اقرب فقل انهم يجهلوننا ولا يعرفون عنها الا النذر اليسير والى هؤلاء واولئك بعض اقوال كواكب الاستشراق والبحوث العلمية والدراسات الواسعة .

قالت الكاتبة الالمانية الدكتورة (سيجريد هوتكه) ان هذه الطفرة العلمية الجبارة التي نهض بها ابناء الصحراء من العدم من امجبت النهضات العلمية الحقيقية في تاريخ الحقل البشري لسيادة ابناء الصحراء التي فرضوها على الشعوب ذات الثقافات القديمة وحيدة في نوعها وان الانسان ليقتف حائرا امام هذه المعجزة العقلية الجبارة والتي يحار الانسان في تحليلها وتكييفها .

وقالت ايضا : « وان أوروبا تدين للعرب وللحضارة العربية وان الدين الذي في عنق أوروبا وسائر القارات للعرب كبير جدا »

وقال العلامة «كارينسكي» ان الخدمات التي اداها العرب للعلوم لم تكن مقدرة حق قدرها من المؤرخين وان الابحاث الحديثة قد دلت على تعظيم ديننا للعلماء المسلمين الذين نشروا العلم بينما كانت أوروبا في ظلمات القرون الوسطى .

وقال الفيلسوف الفرنسي « الكسي لوازون » : خلق محمد للعالم كتابا هو آية البلافة وسجل للاخلاق وكتاب مقدس وليس بين المسائل العلمية المكتشفة حديثا او المكتشفات الحديثة مسألة تتعارض مع الاسس الاسلامية فالانسجام تام بين تعاليم القران والقوانين الطبيعية .

وقال العلامة « دريير » المدرس بجامعة (هارفارد) بأمریکا في كتابه (المنازعة بين العلم والدين) : « ان اشتغال المسلمين بالعلم يتصل بأول عهدهم باحتلال الاسكندرية سنة 638 ميلادية أي بعد موت محمد بست سنوات ولم يعض عليهم بعد ذلك قرنان حتى استأنسوا بجميع الكتب العلمية وقدروها حق قدرها .

ولو اردنا ان نستقصي كل نتائج هذه المعركة العلمية العظمى لخرجنا من حدود هذا الكتاب فانهم قد رفقوا العلوم القديمة ترقية كبيرة جدا واوجدوا علوما جديدة لم تكن معروفة قبلهم .

« ان نتائج هذه الحركة العلمية تظهر جليا بالتقدم الباهر الذي نالته الصناعات في عصرهم فقد استفادت منها فنون الزراعة في اساليب الري والتسميد وتربية الحيوانات وسنن النظم الزراعية الحكيمة وادخال زراعة الارز وقصب السكر والبس وقد انتشرت معاملهم ومصنوعاتهم لكل من انواع المنسوجات كالصوف والحريير والقطن . وكانوا يديبون المعادن ويجودون في عملها على ما حسنوه وهذبوه من سبكها وصنعها واننا لندهش حين نرى مؤلفاتهم من الآراء العلمية وما كنا نظنه من نتائج العلم في هذا العصر .

ويقول في مواطن اخرى : « ان جامعات المسلمين كانت مفتوحة للطلبة الاوربيين الذين نزحوا اليها من بلادهم لطلب العلم وكان ملوك اوربا وامراؤها يقدون على بلاد المسلمين ليعالجوا فيها . وقال العلامة « سديو » في كتابه تاريخ العرب :

« كان المسلمون في القرون الوسطى منفردين في العلم والفلسفة والفنون وقد نشروها اينما حلت اقدامهم وتسربت عنهم الى اوربا فكانوا هم سببا لنهضتها وارتقائها . وقال العلامة « جيبون » المؤرخ الانجليزي :

« كان من اثر تنشيط الامراء المسلمين للعلم ان انتشر الدوق العلمي في المسافة الشاسعة بين سمرقند وبخارى الى ناس قرطبة، ويروي عن وزير لاحد السلاطين انه تبرع بمائتي الف دينار لتأسيس جامعة علمية في بغداد ووقف عليها خمسة عشر الف دينار سنويا وكان عدد طلبتها ستة آلاف لا فرق فيهم بين غني وفقير .

وقال « دريير » : اول مدرسة انشئت للطب في اوربا هي المدرسة التي أسسها العرب في (بارم) من

إيطاليا وأول مرصد أقيم فيها هو ما أقامه المسلمون في اشبيلية بإسبانيا وانهم رتقوا العلوم القديمة ترقية كبيرة جدا واوجدوا علوما أخرى لم تكن موجودة من قبلهم .

ولقد امتاز العرب في الجمع بين فروع العلم والادب وفاقوا فيهم في هذا الميدان ومن يطلع على كتب محمد بن موسى الخوارزمي يجد ان المؤلف جمع بين الجبر والادب .

وانظر الى كتب البيروني تجد ان الادب والرياضيات اجتماعا متماثلين . . قال العلامة «درابرا» : « لقد كان تفوق العرب في العلوم ناشئا من الاسلوب الذي توخوه في مباحثهم وهذا الاسلوب هو الذي اوجب لهم الترقى الباهر في الهندسة والمثلثات .

وقال الكاتب الهندي « فسواني » : التهذيب العربي هو الذي انشا في آسيا وأوربا نشأة جديدة وانسانية جديدة .

ان هذه الاقوال التي جاءت على لسان علماء افاض لمرضاة العلم في ذاته تشهد صراحة وضمننا وجملته وتفصيلا لحضارة المسلمين ومدى فاعلية الحضارة الاسلامية الانسانية التي لمست الانسانية فيها معاني السيادة ومست القلوب فيها معاني السعادة وامتلت في ظلها صروح المجد .

هذه الحضارة ستظل خالدة خلود الابد باقية بقاء الدهر مدوية دوي الاذان لا ينضب لها معين ولا ينتهي لها مدى ولكن ذلك رهين برجوع العرب الى منابع عزهم ، هذا واذا كانت الحضارة الاسلامية لها من الدعائم والركائز المشرفة ما وصل بها الى ذروة ما قدر للانسانية من التقدم ولها من التعاليم والقيم والاداب ما يسمح لها ان تكون لها فلسفتها الخاصة بوجودها .

فهل يمكن لهذه الحضارة ان تعود الى اشراقها من جديد فتساهم في اعطاء الحضارة الانسانية ذخيرة من القوة والقدرة .

الحقيقة التي لا يسوغ انكارها ان آداب وتعاليم الاسلام كفيلا بان تجعل العالم الاسلامي في وضع يسمح له بان ينمي فلسفته الخاصة به والتي تنبع من الفكر الاسلامي . ويتضح ذلك من العقائق التالية :

اولا - ان العالم الاسلامي يشمل منطقة جغرافية تمتد من المحيط الباسفيكي شرقا الى المحيط الاطلسي غربا . مجتازة جاليات ودولا اسلامية ذوات طاقات بشرية واقتصادية وعقلية وحضارية لا حدود لها ومنطقة العالم الاسلامي تتميز بانها :

1 - تقع من العالم موقع الحزام من جسم الانسان . بعيدة عن القطبين ومسالة من الاعاصير والظوفانات والثلوج والبراكين . ولها دفء معين يساعد على تنوع الحاصلات الزراعية وتناسل الحيوانات البرية .

2 - وانها تمتلك من شواطئ البحار الكبيرة والصغيرة ما يمكنها من الاشراف على عدد كبير من اعظم موانئ العالم كما بها من الانهار والنباح ما يجعلها من اخصب المناطق واكثرها ازدهارا ونماء .

3 - وان فيها من موارد الحضارة كالماء والنفط والمعادن والحاصلات الحيوانية والزراعية ما يمكنها من اغناء الحضارة الانسانية وزيادة الامن والرخاء .

4 - وبها من مواطن السياحة ما يرقى بها الى اسمى ما قدر من التقدم والسمو والمجد والسؤدد .

5 - وان التجانس المذهبي بين سكان العالم الاسلامي يجعل المنطقة في منأى عن الانشقاق الملحوظ في المذاهب الاخرى ويقرب بينها ويحفظ وحدتها ويزيدها تفاعلا وفتحا وتقدما .

وتلك امور تجعل العالم الاسلامي قوة ايجابية مهيبة الجانب مخطوبة الود . يتهيب العدو باسه ويخشى سلطانه وتجعله ايضا مهيا للاسهام في بناء الحضارة الانسانية واعادة صنع الحياة واثاق البشرية من الهوة السحيقة المتردية فيها ووهدة الفوضوية والاباحية والاستعمار والالحاد .

ثانيا - واذا انتقلنا من الحديث عن الناحية الجغرافية والموقع وما لهما من خصائص ومميزات وما لهما من كنوز وخيرات الى الحديث عن الاسلام نفسه فاننا نجد انه دين العقيدة الحية الصحيحة التي جاءت وقت بلوغ العقل البشري طور رشده وكماله وفتحه .

العقيدة التي تقر التوحيد الخالص والتنزيه البالغ ارقى صورته وأشكاله عقيدة ترفع من قيمة الانسان لانها تصله بالله الواحد الذي لا شريك له في ذاته ولا في صفاته ولا في افعاله . « قل هو الله

أحد، الله الصمد، لم بلد ولم يولد، ولم يكن له كفؤاً أحد .

ولا تبيح تلك العقيدة الإسلامية للإنسان أن يتعلق بال مخلوقات أو يدعو ويعبد غير الخالق الذي أبدع وفق حكمته جميع ما يشاهد ويحس « إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله » . والإسلام من جهة أخرى دين اجتماعي يراعي حاجة الإنسانية ومصالحها الحيوية في حدود الحق والفضيلة وباعتبار أنه دين توحيد واجتماع أمكن للإسلام أن يقيم المجتمع على أسس القيم الأخلاقية العليا وأن يرضي مطالب الروح والجسد حتى تترافقا في اعتدال وكونا حقيقة الإنسان المهذب والمؤمن الكامل .

وبالجمع بين السمو الروحي والتهديب الاجتماعي أمكن للإسلام أن ينتشر في أركان الدنيا بالعدل والحق والأخلاق وسمو المبادئ .

والإسلام وليد العقيدة الرائقة الرائعة التي تطهر النفس وتذكي القلب وتربي الخلق وتفذي العقل وتوقف الغريزة عند حدها وتمطي كل مطمع من مطامع الإنسان معناه الذاتي وسيره الطبيعي .

والعقيدة الإسلامية : عقيدة استعلاء من أخص خصائصها أنها تبحث في روح المؤمن بها الإحساس بالعمة من غير كبر وروح الثقة في غير افتراء وشعور الأطمئنان في غير تواكل .

ثالثا - أن الإسلام متعل بشؤون الحياة والحكم والفكر ، والإسلام قادر بطبيعته الدائمة على مواجهة تطور الأزمان واختلاف البيئات والمجتمعات ، وله من القدرة والقوة ما يمكنه من التباور والتناسق بحيث لا يتوقف ولا يجمد ولا يتعارض مع طبائع الأمم في حركتها الداخلة الممتدة عبر العصور .

والإسلام ينظر إلى الحياة نظرة كاملة وشاملة ويتدخل في جميع شؤونها السياسية والاجتماعية والاقتصادية وبالإضافة إلى أنه ديسن يهتم بالجانب الروحي من الإنسان ويريد منه أن يتحمل الخلافة في الأرض بأمانة وقوة وحزم وعزم . نادى الإسلام بأمانة وقوة وحزم وعزم . نادى الإسلام بالحرية والأخاء والمساواة ورسم وسائل تحقيقها وأقام موازين الحق والانصاف والعدالة ودعا إلى التعاون والتبادل والمودة والألفة .

ويمكن أن نقول بعبارة أوجز : انه ما من شيء يهم الإنسانية ويشغل بالها ويأخذ قسطا من عنايتها الا وله في الإسلام هدى وبيان واهتمام وما من شيء يلامس حياة الناس أو يتمقها الا وله في الإسلام عرق ينبض وأصل عريق .

ولقد اكتملت قوة الإسلام بوحدة العقيدة وجامعة اللغة العربية واشتراك المجتمع في مظاهر المبادات والمعادات والتقاليد زيادة على توحيد الاهداف والغايات من الحياة .

رابعا - ان تعاليم الإسلام الفراء صالحة لكل زمان ومكان وفي الإصلاح الإسلامي من كليات وجزئيات ما هو كفييل بقيام مجتمع انساني تسوده روح الصدق والمحبة والتعاون والبر والوفاء والإخلاص ولكن ذلك رهين إرجوع المسلمين إلى منابع مزهم ومجدهم والتمسك بأسمى القيم الأخلاقية الإسلامية والعمل بتلك القيم والاسترشاد بالتعاليم الحية النابعة بالسمو والمليئة بالجدوات المتقدة التي لا يخبو ضوءها .

قال الدكتور جورج سارطون : « ان المسلمين يمكن أن يعودوا إلى عظمتهم الماضية وإلى زعامة العالم السياسية والعلمية - كما كانوا من قبل - إذا عادوا إلى فهم حقيقة الحياة في الإسلام والعنوم التي حث الإسلام على الأخذ بها . »

وقال العلامة دامبري : « ان روح نظام المسلمين هو الدين والذي احياهم هو الدين والذي يكفل سلامتهم في المستقبل هو الدين ليس الا » .

ويرى الدكتور فيليب حتى : « ان الشرق الإسلامي هو اليوم في مطلع دور جديد في حياته العلمية كما انه في فجر طور جديد في حياته السياسية وهو دور يمكن أن نسميه دور الإبداع والابتكار ضمن اطار الميراث الخالد من القيم الدينية والأدبية . ولنا ان نتكهن ان ابناء الثقافة الإسلامية على اختلاف بيئاتهم سيقومون بقسطهم في خدمة المدنية والانسانية » .

والدكتور سمث استاذ ورئيس قسم الديانات بكاية ووتر بولاية اوهايو يرى انه لو امكن اشارة التماسك الإسلامي في سبيل افراض ايجابية وتكثيل الامم الإسلامية الكثيرة المختلفة في وحدة حية لا يمكن ان تصير هذه الوحدة قوة ايجابية في العالم ..

(يتبع)

نقد الكتب

الدكتور مدوح عتي

وخير في المكتب الدائم ،

- 2 - نفحات الخليج ، عبد الله سنان محمد
260 صفحة من القطع الكبير .
- 3 - بيت من نجوم الصيف ، علي السبتي
172 صفحة من القطع الصغير .
- 4 - النور من الداخل ، محمد الفايز
260 صفحة من القطع المتوسط .
- 5 - الطين والشمس ، محمد الفايز
98 صفحة القطع الصغير .

أما الأول والثاني فشرهما ابامي النسيج ، البيت فيه شطران والقافية موحدة . إلا أن موضوعاتهما متلاحمة مترابطة كأنها قصة ذات مقدمة وموضوع ونهاية ، وفي ذلك تفوق حسن على كثير من الشعراء الاباعيين المعاصرين ، لولا أن لغتها ليست من القوة بحيث تشبه لغة كبار الشعراء .

وأما الثلاثة الأخيرة ، فقد سلكت طريق الشعر الحر ، أصابت في بعضه وضعفت في بعضه الآخر . وموضوعاتها على العموم رومانسية تذكرنا بشعراء النهضة الأوائل في لبنان وسوريا ومصر .

وفي طريقة العرض ميل إلى الرمزية ، فديوان الطين والشمس مثلا ، يمرض الشاعر في كل صفحة ثلاثة أبيات ، وأحيانا بيتا واحدا ، وأحيانا صورة رمزية كرجل مصلوب ، أو رجل عريان قاعد على رأس تل وفوق رأسه قراب ... وكلها من الرسم القريب من السريالي . والديوان كله يقرأ بنحو نصف ساعة!!

أماي الآن ثمانية دواوين ثمانية شعراء من الكويت . وقد قرأتها جميعا بلهفة لاني ما كنت أتصور أن هذه الدوة العربية الصغيرة بحجمها ، القليلة بمدد سكانها ، قادرة على أن تنتج مثل هذا المدد الضخم من الشعراء ، في مثل هذه الفترة القصيرة من الزمن ، ولو كان في المجلة متسع لنقدها وتقريظها تفصيلا لقمعت ، وأنها لجديرة بذلك ، ولكنني مضطر إلى مرضها مجملة ، تعريفيا بها ، ولثلا يفوت قراءنا العلم بالنهضة الادبية المتوثبة في هذا القطر الحبيب .

ولاحظت أن ثلاثة من هذه الدواوين أنشئت باللهجة الكويتية ، ويسمونها هناك « اللغة النبطية » فهمتها كلها ولم يفتني منها الا القليل النادر ، وهذا ما يؤكد لي بأن اللهجات العربية، مهما تباعدت الاقطار فيما بينها ، هي متقاربة جدا سواء بمفرداتها أم بتراكيبها . كما اني لاحظت ارتفاعا بمستواها عما كنت أعهده فيها قبل بضع سنين ، وهذا دليل واضح على الاتجاه الطيب الذي تتجه إليه اللهجات العامية في جميع بلاد العرب نحو اللغة الفصحى . ومع أني أعجبت بشامية اصحاب هذه الدواوين الثلاثة ، السادة : وليد جعفر في « آهات قلبي » وعبد الله عبد العزيز الدويش ، وصقر النصافي ، فاني لا أراه أكثر من شعر محلي .

أما الدواوين الخمسة الأخرى ، فلفتها عربية فصيحة على تفاوت فيما بينها قليل

- 1 - ديوان صقر الشبيب 460 صفحة من
القطع الكبير .

أما الكتاب الأخير الذي وقفت عنده كثيرا على سفر حجمه (93 صفحة من القطع الصغير) فهو « مقالات عن الكويت ، لأحمد البشر » فقد مرض جزءا من تاريخ الكويت الأدبي القديم وجلا ناحية لم يسبقه إليها أحد : اثبت بأن جبل كاطلة الذي دفن فيه غالب بن صعصعة ووالد الفرزدق ، ما هو إلا المكان المسمى الآن « أمقيرة » قرب الجبراء. وأن « الفرزدق » نشأ بين قومه هناك ، وأنه كان يثوب إليه بعد كل سفر . وعلى هذا فالفرزدق سيد شعراء بني أمية الأوائل ، ما هو إلا شاعر كويتي ، وإذا لم يكن للكويت من نخر في تاريخها الأدبي إلا أنها انجبت مثل الفرزدق لكفيت بذلك فخرا .

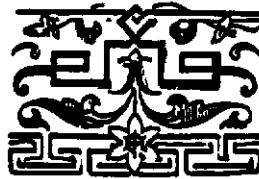
إلا إن شامية هذا الشاب قد تستوقفك أحيانا للتأمل والتفكير .

وأحب أن أشير هنا إلى كتابين آخرين تلقيناها من الكويت كذلك هما :

1 - دواسات كويتية - فاضل خلف 154 صفحة من القطع الكبير .

2 - أدباء الكويت في قرنين - خالد سعود 288 صفحة من القطع الكبير .

وهما كتابان جيدان يوضحان كثيرا مما غمض في تاريخ الكويت الأدبي ، وبشرحان كثيرا مما تعقد على الدارس فهمه. وقد اتكأت عليهما وساعداني مساعدة مجدية في تفهم شعراء الكويت فصيحهم ونبطيهم .



الموسيقى لغة الروح

الأستاذ ابراهيم الدرويش المصري
مفكّر التريّة الموسيقية في سوريا

ولما كان التفكير بتأثير بالمؤثر الخارجي وبالظروف الآتية التي ينشط فيها ، فإن النتيجة التي يصل إليها في حالة التأثر بالموسيقى ، هي نتيجة لا شك أنها من مقومات الفهم التام والجمال المجرد الذي يتجه ناحية الخير .

ولم يعد أثر فن الموسيقى محصوراً في أطراب الأذن وأشباع الحواس ، كنوع من الترف والكماليات كما كان شأنها فيما مضى ، بل تمداه إلى تادية خدمات جليلة في كل ميدان من ميادين التربية والمادة والمجتمع .

وكانت الحرب العالمية الأخيرة اختباراً قوياً لتقيمة هذا الفن في ميادين عدة كالتوعية والتوجيه والترقية .

ولقد أدت الموسيقى دورها من قديم كوسيلة للدعاية المشرفة . فقبل قرن مضى تقريباً كانت « بولونيا » لا تعدو كونها أمة مستعبدة تتناوب حكمها دولتان قويتان ، روسيا وألمانيا وكانت أخبار كفاح شعبها الباسل - نظراً لتأخر وسائل المدنية آنذاك - تصل مشوهة لا تلفت ولا تثير إلا عطفاً وقتياً . لقد أخفقت السياسة وفشلت الدعاية في لفت انظار العالم إلى نصرة بولونيا الجريحة ولكن الموسيقى نجحت فيما أخفقت فيه جميع الوسائل ونجح موسيقى في استدراج العطف على أمته وإثارة ضمير الإنسانية في صالح بلاده . فقد مور شوبان في مقطوعته (البولونية)

على الدرويش علم من اعلام الموسيقى في القطر العربي السوري .

ياخذ موقفنا من الموسيقى أوضاعاً ثلاثة :

1 - نستمتع إليها كوسيلة لترفيه والطرب ، والاستماع الفني .

2 - نبغها كعلم وفن وصناعة ومهنة .

3 - نبغها في أثرها العام كثقافة ولدوق وتوعية وتوجيه ، وفي أثرها التربوي الخاص ، وهو ما يهمننا في هذه الكلمة .

الموسيقى فن رفيع بل لعله أرفع الفنون .
هي لغة الروح المجردة عن المادة ، المنطلقة من سلال الحياة وتبورها . هي لغة نبيلة تستطيع أن تانس إليها كل روح ويطمئن إليها كل قلب لأنها الصدى الذي يعبر عن مشاعر لا تستطيع لغة الكلام أن تجاريها فيها . وارتباط الموسيقى هذا الارتباط الوثيق بالعاطفة الإنسانية يجعل تأثيرها أعمق وأكثر من غيرها من الفنون الجميلة في توجيه الروح والقلب وفي تفتح الطاقات وتفجيرها ، كخطوة أولى في سبيل توجيه الفكر البشري .

لان تأثير الموسيقى لا يزول بتأثير النفخة واللحن المنبث من الآلة الموسيقية أو من الحنجرة البشرية ، إذ أنها تنقل المشاعر إلى عالم جميل علوي يستسيغه العقل ويعمل فيه بحرية وحيوية .

كفاح شعب جريح وصور في العانها نداء الحق
المهضوم فاذا بهذه المقطوعة الموسيقية تسدي خدمة
لم تسدها السياسة قط الى شعب مناضل مكتم .
وتحررت بولونيا لان موسيقى (شوبان) قد حركت
الضمير البشري .

ومندي اكثر من مثال على ان الموسيقى تستطيع
باشراف الدولة ان توجه الجماهير والشباب والاجيال
في التربية والتوعية الهادفة ، توجيهها كليا .

مثالنا على ذلك موسيقى (فاكنر) الالماني التي
ادت دورا هاما في حياة المانيا ، فقد اوحت مقطوعاته
الى الشعب الالماني روح النضال والكفاح في سبيل
البقاء والاتحاد ، وكانت هاما قويا في تكوين المانيا
ايام حرب السبعين ، ثم استخدمت ثانية في النهوض
بالمانيا بعد هزيمتها في الحربين العالميتين الاولى
والثانية فقد ادخلت في البرامج الدراسية وفي
الشهادات العامة وبثت في نفوس الشعب الالماني
فوجهته الى الثغاني في محبة الوطن والقومية وخدمت
اغراض السياسة ايضا .

وقس على ذلك نشيد (المارسيلاز) الذي كان
من عوامل حماية الثورة الفرنسية وقد الف كلماته
ولحنه الثائر (روجيه دي ليل) . وانشيد معركة
بور سعيد العربية عام 1956 واخص بالذكر نشيد
(الله اكبر) ، ثم بعض اناشيد الثورة في الجمهورية
العربية السورية . وهناك امثلة لا حصر لها .

ولم يقتصر عمل الموسيقى على الميادين
الروحية بل تمدتها الى الميادين العملية ، اذ ان
استخدامها في المصانع خلال الحرب الاخيرة ومسا
بعدها ، قد ادى الى زيادة الانتاج زيادة كبيرة
ملحوظة .

ولا الهالي اذا قلت بان الدول الكبرى كالولايات
المتحدة الامريكية والاتحاد السوفياتي ومعظم الدول
النامية واخص بالذكر سويسرا التي ظهر فيها المربي
(جاك دلكروز) مؤسس مدرسة التنظيم والتربية
الموسيقية عام 1913 - كانت سبابة في ادخال
الموسيقى كوسيلة من وسائل التربية ، فقد اثبتت
الاختبارات العلمية الدقيقة ان الموسيقى تلعب دورا
هاما في تكوين شخصية ونفسية الطفل في سنينه
الاولى وفي دور المراهقة والشباب ايضا .
ولذا اصبحت الموسيقى من مقومات الحضارة
الحديثة كعلم وفن وصناعة ومهنة ووسيلة خطيرة من

وسائل الدعاية والتوجيه والتوعية والتربية والتعليم .
كما ان الموسيقى تريح العقل كما يريح الاستجمام
الجم لماتبته من نشاط فكري نشاهد اثره واضحا
جنبيا في تفكير الطفل وزيادة قابليته للفهم والاستيعاب .

وهكذا نلمس للموسيقى اثارا ثلاثة في التربية:

1 - اثرها في التوجيه والتربية العامة
للشعب .

2 - اثرها في تربية الروح القومية والمحبة
للانسانية .

3 - اثرها التربوي في المدرسة .

لهذا كان لا بد لنا اذا ما اردنا ان نقوم على تربية
جيل جديد يتوقف عليه ازدهار شان امتنا ان نأخذ
بعين الاعتبار مسألة ادخال الموسيقى بصورة جدية
في وسائل التربية كعنصر اساسي للتربية النفسية
والخلقية وتثريتها في مناهج التعليم العام بجميع
مراحلها واعتبارها في الشهادات العامة ، والمعمل على
افتتاح المعاهد الموسيقية لرعاة الموهوبين والمعاهد
الشعبية لتثقيف الهواة ، وتنظيم الامور الموسيقية
والعناية بها باخلاص ونزاهة في كل من الازمعة
والتلفزيون . على ان يكون هدفنا دوما توجيه فن
الموسيقى توجيها سليما للتاثير على عقلية رجال
ونساء الغد بما فيه دعم بناء الامس .

واري ان تكون الموسيقى قطعة من حياة الطفل
ذكرا كان ام انثى وخاصة في مرحلة رياض الاطفال
والتعليم الابتدائي ، واري ان تربي غرائز الطفل
ونفسيته تربية موسيقية وخلقية قوية بتوجيه فني
تربوي ، يستطيع ان ينفذ الى مشاعره ويسمو بها .

وبهذا تسهل مهمة المربي والمربية لان الموسيقى
اداة فعالة في تدريب عقلية الطفل وتهديب نفسيته
وتوسيع مداركه في الطريق التي ترسمها قواعد
التربية .

ولنضرب مثلا للمجهود العربي في هذا المجال
بحياة علم من الاعلام الموسيقي في القطر العربي
السوري هو الاستاذ علي الدرويش : فقد ولد وتوفي
في حلب 1884 م - 1952 م .

كان جده الاكبر من اصل مصري عربي ، خلف
ولدا اسماء ابراهيم ، كان ابراهيم هو والد علي
الدرويش يشتغل بتجارة الاقمشة وقد نشأ نشأة
مصامية دينية ، تعلم القراءة والكتابة في الكتائب

والمدارس الدينية وكان ذا صوت حسن ومن اتباع الطريقة المولوية «التكايا المولوية» في المعهد التركي العثماني ، فكان لذلك اثر كبير ورثه عنه ابنه الصغير علي ، وعندما كان الفتى الصغير علي يدرس في المدرسة الاشرفية الابتدائية ، ينتهز الممثل المدرسية وخصوصا ايام الجمعة ليسرور والده في التكية للاستماع الى حفلاتهم الخاصة ، فكان يستمع طويلا الى اناشيدهم وموسيقاهم الصوفية وبموجب بها ومن هنا نشأ تعلقه بالموسيقى وشغفه بها .

انس شيخ التكية «عامل جلي» بالشاب علي صوتا جميلا وميلا قويا للموسيقى فاوكل اليه مهمة اداء الاذان في شهر رمضان . . ثم طاب من والده ان يلقنه الحان الطريقة المولوية واغانيتهم كي يشترك ابنه علي في حفلاتها وكانت تضم جدران التكية المولوية في ذلك الحين «عثمان بك» الملقب «كجوك عثمان» مؤذن السلطان عبد العزيز سابقا الذي نفاه السلطان عبد الحميد عند توليه الحكم وعنى يدي «عثمان بك» تلقى علي دروسه الاولى في مبادئ الموسيقى وقواعدها الاولى . ثم رار مدينة حلب في هذه الفترة من الزمن موسيقار تركي من اشهر نافخي «الناي» يدعى «شرف الدين بك» وقد اخذ عنه علي الشاب دراسة النفخ بالناي ؛ وفي تلك الاثناء كان يجمع ما بين دراسته في المدرسة اثناء النهار ودراسته الموسيقية في التكية اثناء الليل . وعندما انهى دراسته الابتدائية التحق بالمدرسة العثمانية للموسيقى الدينية سابقا وهي «الخشرفية» والكلية الشرعية حاليا وكان من اساتذتها المرحوم الاستاذ الكبير الشيخ بشير الغزي . وعندما انهى دراسته في هذه المدرسة بعد اربع سنوات كان ما زال منكباً على دراسته الموسيقية وقد لقب بالشيخ علي لتقدمه في الفن الموسيقي على اقرانه وتفوقه فيه ، ثم لدراسة في المدرسة العثمانية ولقب بالدرويش ايضا لانتسابه الى الطريقة المولوية فاطلق عليه الشيخ علي الدرويش ، وكان يطلق عليه ايضا «علي دده» بالتركية لانتسابه الى الطريقة المولوية . لذلك فقد اتقن هذا الشاب اللغتين العربية والتركية وعمره لا يتجاوز الثانية عشرة .

وقد عينه بعد ذلك شيخ التكية (عامل جلي) في وظيفة (قدوم زادياشي) رئيس جماعة الموسيقيين في «المطرب» وهو المكان الذي كان يجلس فيه جماعة العازفين والمغنيين اثناء حفلاتهم الخاصة ،

وبقي في هذا العمل زهاء عشرة اعوام متوالية ، كان خلالها دائم البحث والتنقيب عن اصول الموسيقى ودقاتها بصورة عامة والموسيقى والالحن والمؤلفات العربية التركية بصورة خاصة . لذلك فان الشيخ علي تاجر كثيرا بأساليب والحن الموسيقى التركية التي طعم بها الموسيقى العربية بمؤلفاته والحنه، وقد لحن عددا كبيرا من الالحن باللغة العربية ومن الالحن الالية كالبخارف والسمايات ؛ ومن الالحن المولوية باللغة التركية وهي الحان مطبوعة بطابع الخشوع والوقار والمعروفة باسم «آيين شريف» ومن الحنه آيين كردبلي حجاز كار وغيره . .

رحل الشيخ علي رحلته الاولى من حلب الى امارة الحمرة في ولاية البصرة وقد ارسل في طلبه امير الحمرة على رأس فرقة موسيقية غنائية وذلك بعد ذبوع شهرته خارج البلاد السورية، وعندما سافر الى الحمرة كان عمره حوالي السابعة والعشرين عاما بعد ان استقال من وظيفته في المولوية نهائيا . وكان تاريخ سفره الى الحمرة وعودته منها ما بين عام 1912 الى عام 1914 م . وقد عاد الى بلده حلب في بداية الحرب العالمية الاولى فقد امضى في ضيافة (الامير خزل) سنتين كان فيهما موضع حفاوته واكرامه مع اعضاء فرقته الموسيقية .

انتهز فرصة وجوده في تلك البلاد فزار البصرة وبغداد وطهران ومنها سافر الى الهند وحل في كراتشي وبومباي ثم قفل راجعا الى حلب ابان الحرب العالمية الاولى ايام حكم السلطان رشاد كما ذكرت.

وفي عام 1914 حتى عام 1923 م . سافر الى البلاد التركية فاصدا استنبول بصحبة شيخ تكيه حلب «عامل شابي» وهناك في استنبول اتم الشيخ علي دراسته العالمية في الموسيقى في معهد «دار الالحن» الشهير . وقد عين بعد ذلك مدرسا للموسيقى في مدينة «قسطنوني» وهي مركز ولاية قسطنوني الواقعة شمالي تركيا قريبة من شاطيء البحر الاسود . وقد ألف في مدينة قسطنوني فرقة موسيقية نحاسية امضاؤها من طلبة المدارس الثانوية ودور المعلمين والصنائع والميتم الاسلامي كانت هذه الفرقة تعزف في المناسبات الرسمية وغيرها . وكانت اقامته في مدينة قسطنوني تسع سنوات تزوج خلالها من هناك .

وقد انجز في هذه الفترة كتابا في دراسة الموسيقى من تأليفه في خمسة الى سبعة ابواب . . ثم

اذن ملكي صادر في سراي راس التين بالاسكندرية في 18 تشرين الاول عام 1931م. وذلك للسفر مع ديرلنجيه الى تونس للعمل معه على اتمام ابحاثه في الموسيقى العربية .

وقد اشترك للشيخ علي في عام 1932 م . في مؤتمر الموسيقى العربية الذي عقد في مدينة القاهرة بدعوة ملكية رسمية . هذا المؤتمر المشمول بالرعاية الملكية والذي اشترك فيه نخبة من اساتذة الشرق والغرب ودام انعقاده قرابة شهر . سافر الشيخ علي الى تونس ومكث هناك من عام 1931 م حتى عام 1939 أي حتى بداية الحرب العالمية الثانية . عندما سافر الى تونس عام 1931 م . كما ذكرت سابقا ومكث هناك عدة اشهر ، عاد الى القاهرة بعد ان طلب رسميا لمؤتمر الموسيقى العربية وائر انتهاء هذا المؤتمر سافر الى تونس صحبة البارون ديرلنجيه للعمل معه على اتمام ابحاثه ودراساته حول الموسيقى العربية بعد ان ترك القطر المصري نهائيا ، وبعد شهرين من وصوله الى تونس الخضراء ، تعاقب مع وزارة المعارف التونسية في معهدي المطارين والرشيديية لتدريس الموسيقى . فمكث في تلك الديار ذهاء ثمان سنوات كان يطوف خلالها مع ديرلنجيه في جميع البلاد التونسية وشمال افريقيا للبحث عن الالغان الباقية من آثار الاندلسيين الذين هاجروا قديما الى تونس والقيروان واكثرهم من سكان قرطبة وقرطبة واشبيلية وقد كافت هذه الابحاث البارون ديرلنجيه مبالغ طائلة ولكن الشيخ علي وفق اثناء ذلك الى جمع وتكوين اربعة عشر « نوبة أندلسية » وعشرين ملحقا لهذه النوبات وجملة موشحات أندلسية . وقد استطاع الشيخ علي الاحتفاظ لنفسه بنسخة من هذه النوبات والموشحات الاندلسية لتكون في حوزته .

وقد اسس الشيخ علي هند عودته الى مدينة حلب خلال العطل الصيفية مع رهط من اصدقائه من هواة الموسيقى حوالي عام 1934 م . ناديا موسيقيا لتدريس الموسيقى ونشرها باسم « النادي الموسيقي بحلب » وكان مقره وقتئذ في باب النصر. ثم انتسب عضو شرف في نادي « دوحة الميماس للموسيقى والتمثيل » في مدينة حمص وكان في تلك الاثناء عضوا عاملا في حزب الكتلة الوطنية الذي كان يتزعمه الزعيم الراحل ابراهيم هنانو ضد الانتداب الفرنسي، فلحن الكثير من الاناشيد الحماسية والوطنية في مناسبات عديدة . فاذا ما انتقضت العطل الصيفية عاد الشيخ علي الى مقر عمله في تونس . . وقد عمل

عاد بعد ذلك الى مدينة حلب تاركا في قسطنطيني اجمل الذكري وخلف هندا من التلاميذ اصبحوا اساتذة من بعده . . وعندما عاد الشيخ علي الى اهله وذويه في حلب كانت سوريا حينذاك تحت الانتداب الفرنسي . مكث ثلاث سنوات الف خلالها الكثير من الالغان الفنائية والآلية . مثل سماوي عجم عشيران وسماوي نهاوند ولونقا فرحفا وفيها . وقد بحث في هذه الفترة من الالغان العربية القديمة التي اشتهرت بها سوريا وخاصة مدينة حلب فجمع من التراث العربي الشعبي القديم وغيره ودونه وسجله بالعلامات الموسيقية الحديثة كالموشحات والتدود والادوار وفاضل « اسق المعاش » ورقص السماح مع تدون العانها .

ثم انتسب عضوا عاملا الى نادي « الصنائع النفسية » وكان من اعضائه الاساتذة المرحوم شرف الدين الفاروقي والدكتور فؤاد رجائي والاساتذ سعد الدين القدسي مؤسس النادي وغيرهم .

وفي هذه الفترة سافر علي راس فرقة موسيقية الى استانبول ، نال هناك نجاحا باهرا ثم عاد مصطحبا معه هندا ضخما من الكتب والمؤلفات الموسيقية في شتى الفروع والاختصاصات في اللغات التركية والعربية وغيرها ، وفي عام 1927 م حتى عام 1931م رحل الشيخ علي الى القطر المصري ، بعد تسلمه دعوة رسمية من النادي الموسيقي الشرفي بعصر الذي اسس في القاهرة عام 1913 م . ذهب لتدريس الموسيقى هناك بعد ان اتفق اهضاء النادي المذكور الذي شمله الملك فؤاد الاول برعايته وعلى راسهم رئيس النادي مصطفى بك رضا ، على شراء كتاب مؤلف في الموسيقى للشيخ علي وتدرسه مدة اربع سنوات بصورة مبدئية على ان يكون للنادي الحق في نشر الطبعة الاولى من هذا الكتاب . وتعرف اثناء اقامته في مصر على كثير من الشخصيات الفنية وغيرها . ودرس عليه في هذه الاثناء بعض المشهورين الان كلاساتذة : محمد عبد الوهاب ، رياض السنباطي والسيدة ام كلثوم . وكان الشيخ علي يعود الى حلب خلال عطلة النادي صيف كل عام . وفي عام 1931 م اي قبل انعقاد مؤتمر الموسيقى العربية بسنة واحدة تعرف الشيخ علي في مصر بمستشرق انجليزي يدعى البارون ديرلنجيه والذي دعاه هذا الاخير للعمل معه في تونس لتمام ابحاثه في الموسيقى العربية بعد ان اعجب بمقدرته الفنية ثم استحصل له من طريق النادي الموسيقي الذي كان يعمل فيه على

من عمر ناهز الثامنة والستين وقد شيمت جنازته في حفل رهيب مشى فيها بعض الهيئات الحكومية وقد جاء خصيصا من اساتذة المعهد الموسيقي الشرقي بدمشق للاشتراك بتشجيع جنازته الى جانب اساتذة وطلاب المعهد الموسيقي في حلب حشد كبير من الجمهور ، ودفن في مقبرة آقيول بحلب .

واورد هنا مقتطفات من قصيدة شعرية للشاعر التونسي محمود بورقيبة يمتدح بها فيف تونس حينذاك المرحوم الاستاذ علي الدرويش عنوانها :
- رابطة الفن بين تونس وشقيقتها سوريا -

يقول الشاعر محمود بورقيبة :

لمدة الفن اجلاسي واعظامي
الى «علي» الى ذي المركز السامي
الى الذي حل بالخضراء فافترفت
من فنه علم اوزان وانغام
الى الذي كان يلقي من شبيبتها
دوما عواطف تقدير واكرام

الى ان قال :

« علي » بلغ لسوريا الشقيقة من
خضرائنا كل تبجيل واعظام
وعد لتونس يا استاذ عبودة ار
هار الربيع لها في عذب بسلام
وانشر باجوائها فنا رفعت له
راسا كريما فاضحى شامخ الهام

الى ان قال :

سر عمدة الفن نحو الشام وابق لنا
الذكرى العزيزة ذكرى خير اسام
واحمل الى الشام من خضرائنا ارجا
عربون ود عميق بالحشا نامي
والشرق في صدره لا زال يجمعنا
والفن قد ربط الخضراء بالشام

ايضا في الاذاعة التونسية وقام من تونس مع بعض الاصدقاء برحلات الى اوربا وحضر بعض الحفلات الموسيقية لدور الاوبرا والسفونواذ كان يجب جدا بتلك الموسيقى التي وصلت الى ما وصلت اليه في تطورها من الرقي والكمال .

وفي هذه الاثناء توفي البارون ديرلنجيه مأسوفا عليه بالنظر لخدماته الجليلة للموسيقى العربية وقبل مغادرة الشيخ علي الديار التونسية انعم عليه باي تونس آنذاك بوسام الافتخار من الدرجة الثالثة تقديرا له على خدماته للموسيقى العربية في المملكة التونسية .

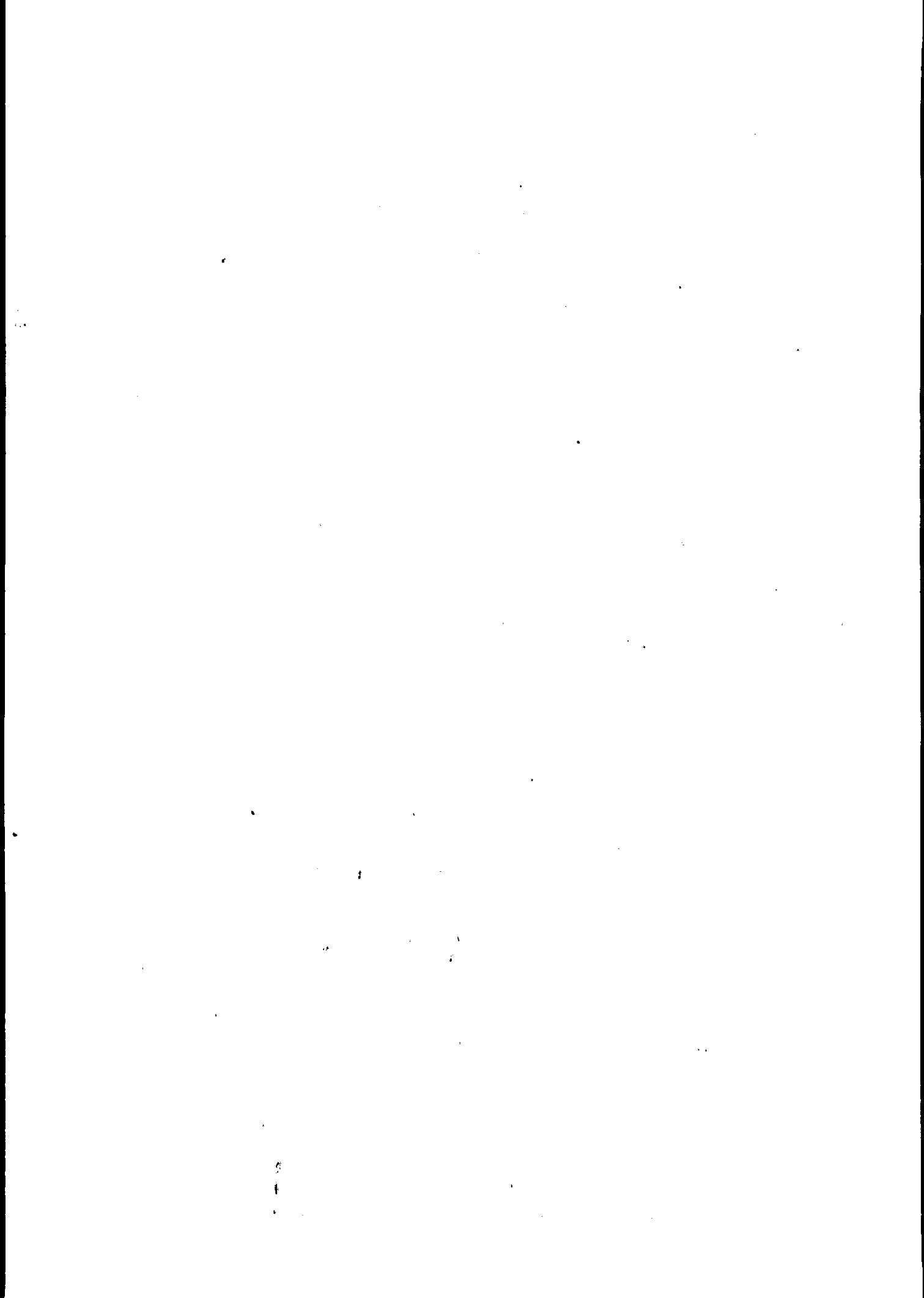
وفي ابتداء الحرب العالمية الثانية عام 1939م قفل الشيخ علي راجعا الى وطنه تاركا آثارا طيبة واصدقاء وتلاميذ أصبحوا عمدة النهضة الموسيقية في تونس ومنهم الاستاذ صالح المهدي رئيس اللجنة القومية للموسيقى حاليا ، وعندما عاد الى حلب الف كتابا في الموسيقى بعنوان « النظريات الحقيقية في علم القراءة الموسيقية » .

وفي عام 1942 م . عين الشيخ علي مميذا ومدرسا في المعهد الموسيقي الشرقي بدمشق .

وفي عام 1944 م . سجل في محطة الاذاعة في القدس بفلسطين نخبة كبيرة من الموشحات القديمة ثم عمل مدرسا في معهد الفنون الجميلة في بغداد من عام 1945 حتى عام 1951 م . وقد سجل في اذاعة بغداد ايضا عدة تسجيلات من الموشحات القديمة وبقي هناك زهاء ست سنوات ، وفي عام 1946 م . كان الشيخ علي الدعامة الكبرى في تأسيس المعهد للموسيقى في حلب ولدى عودته الاخيرة الى الوطن عام 1951 م . عاد الى عمله السابق في المعهد الموسيقي ، هذا المعهد الذي أسسه المرحوم الدكتور فؤاد رجائي ثم عين الشيخ علي الى جانب عمله في المعهد مستشارا فنيا في دار الاذاعة السورية في حلب الى ان وافته المنية في مدينة حلب يوم الخميس المصادف في 12 ربيع الاول 1371 هـ . الموافق في 26 تشرين الثاني عام 1952م

المعلمة العربية

- التحقيق العلمي عند الدكتور مصطفى جواد
للاستاذ محمد ابراهيم الكتاني
- الفكر العلمي العربي في شخص العباس بن فرناس
للاستاذ سعيد الديوه جي
- اعلام اللغة : احمد فارس الشدياق
للاستاذ محمد جميل بيهم
- تاريخ جامعة الدول العربية
للشيخ طه الواسي
- مروية فلسطين
للدكتور اسعد حومد
- دراسة حول نهاية الادب للنويري
للاستاذ عبد الحلیم الندوي



التحقيق العلمي

عند الدكتور مصطفى جواد

محمد ابراهيم الكنتاني، الأستاذ في جامعتي القرويين
ومحمد الخامس « المغرب الأقصى »

أوفد المكتب الدائم الأستاذ محمد ابراهيم الكنتاني ليمثله في حفل تاسين
المرحوم الدكتور مصطفى جواد ببغداد وقد ألقى الأستاذ باسم المكتب الدائم المحاضرة
الآتية :

ومنها الاخذ من نحو البصريين دون الكوفيين ، مع أن
مذهب البصريين مناب لطبيعة اللغات .

وفي (الصرف) يبين بطلان فكرة (المطاوعة) و
(المصدر الصناعي / و (عدم النسبة للجمع) .

وفي مشكلة معجمات العربية ومرداتها يذكر أن
اللغة العربية محتاجة الى معجمات تستوعب الفصح
وغير الفصح ، والقديم والمولد ، والعربي والمغرب ،
كما ورد في كتب المسلمين الى زمن انتطاع الفاليف
المتن .

يذكر أن الكلمة العربية لها قيمتان دائما ، قيمة
معجمية لا حياة فيها ، وقيمة استعمالية هيوية ، واثق
اذا تصلحت هذه المعجمات اللغوية المتداولة قلما
تجد الشواهد القرآنية لاستعمال الكلم مع أنها اقدم
الشواهد تسجيلا وأصحها .

فالمعجمات ينبغي فيها أن تأخذ وجوه استعمال
الكلمات في القرآن الكريم ، وتجب دراسة القرآن
دراسة لغوية ودراسة تعوية مودا على بدء . ففي ذلك
نعش للعربية من كيوتها وتقوية وتوسيع .

ويعتر أن من أعظم ميسرات العربية على
طالبيها والكتاب الناشئين وضع (قواعد عامة)
تغنيهم في كثير من الاهيان عن مراجعة المعجمات ،
وتدم 16 قاعدة امثلة لما يقترحه من القواعد .

ان الناظر في كثير من آثار الفقيد الدكتور مصطفى
جواد رحمه الله ، - ولو كان معجلا ، يتجلى له
بوضوح متانة ثقافته واتسامها وعمقها ، واطلاعه
الواسع ، واستقلاله الفكري ، ومعرفته الكبيرة بالكتب

لهو ذو ثقافة لغوية متينة . شديد الحرص على
سلامة التعبير العربي من المسخ والانحراف عن النهج
السليم . وهو في نفس الوقت شديد العناية بمسايرة
اللغة العربية لركب التطور ، ومواجهة المشاكل التي
تعترض سبيلها ، وهو اذا كان عارفا بالتراث محترفا
به قادرا له حق قدره ، فانه في نفس الوقت يفرق عن
معرفة واسعة بين ما هو من جوهر العربية وذاتيتها
القائمة على اساس المقدسات التي لا تحتل تطورا ولا
تبديلا . وما هو من اجتهادات المجتهدين التي يحسني
لغيرهم ان يناقشهم فيها وأن يدلي من جهته بتجربته
الخاصة ، حسبما جرت عادة الباحثين في عصر
ازدهار الفكر العربي . وهو بهذا التفكير الاصيل المتحرر
في نفس الوقت ، يواجه مشكلة المصطلحات ومشكلات
نحو العربية وصرفها : من الجمود وعدم الابداع ،
ويعنى بالجمود اتباع قديماء النحويين في سرد القواعد
من غير عرضها على كلام العرب وشعرهم الخالي من
الضرورة .

ويذكر من اسباب اختلال النحو اختلالا ملحشا
حصله عما يسمى (علم المعاني) الذي كان من النحو ،

والدقة في التعبير ، وعدم القاء الكلام على عواهنه ،
والعفة في المنطق ، والتواضع وعدم الدعوى .

وكما يتجلى فيها بوضوح شفه الكبير بالكتيب
ومعرفته الواسعة بمطبوعها ومخطوطها ، والصحيح
والسقيم من طبعاتها ، وما هو منسوب خطأ لغوي
مؤلفه ، ومن هو مؤلف بعض من جهل مؤلفه منها وما
هي قيمتها ، وما هو تام منها وما هو ناقص ، والموجود
منها وأمكنة وجوده ، وما هو مجهول المكان ، فان ذلك
يتجلى أيضا فيما نشره عن الكتب من دراسات
ومتالات لا تعد ، مما يؤكد صحة ما قاله الفقيه رحمه
الله عن الكتب والمخطوطات في الحديث الذي نشرته
مجلة (اطلال) في الجزء الاول من السنة السادسة بقلم
الاستاذ سالم الالوسي : (انها عماد حياته وسر
بقائه) .

وقديما قيل : (العلم معرفة المظان) فمن لـم
يعرف المراجع التي تناولت الموضوعات المختلفة وقيمة
هذه المراجع من الناحية العلمية ، لم يستطع معرفة ما
يحتاج معرفته او لم يكن على ثقة من صحة ما يجده
فيها .

ومن امثلة تحقيق الفقيه العلمي في دراسته للكتب ،
بحثه القيم عن (الصانع من معجم الادباء) لياتوت
الرومي الحموي ، فقد بين فيه وتوع النقصان فيه ،
وفي مواضع لم ينسبه لها ناشره مرجليوت ، وقتدان
القسم الثاني من الجزء الثالث والشك في كون الجزء
الرابع أصلا أو مختصرا فقط ، وان السابع مختصر
مقط ثم شك في ان يكون كل من الجزئين الرابع
والسابع منتزعين من (معجم الشعراء) لياتوت
الحموي ، ان لم يكونا جزئين منه ، ثم عقب بذكر
تراجم تعتبر ضائعة من معجم الادباء عثر عليها من
مطالعته وتصفحاته ، وقد وفقت منها على 46 ترجمة
في العديدين السادس والسابع من مجلة (المجمع العلمي
العراقي) وقال : له صلة ، فما ادري انشر شيئا بعد
ذلك أولا ؟

ويعتبر ميدان تحقيق المخطوطات من ابرز ميادين
التحقيق العلمي .

وغير خاف انه كان للعرب والمسلمين في عصور
ازدهار الحضارة العربية والثقافية الاسلامية تقاليد
رائعة في ميدان تحقيق المخطوطات ، فقد كان المؤلف
يكتب تاليه ويصححها ، ثم يملئها على الطالب وهو
يكتب ثم يقرأ الطالب على المؤلف ما كتبه والمؤلف
يمسك نسخته ، فيصحح الطالب بين يدي المؤلف ما

وكل هذا في مقدمة محاضراته عن (المباحث
اللغوية في العراق) وقد اشار في اخرها الى
مؤلفاته في هذه الموضوعات : (المعجم المستدرك)
الذي نشر منه شيئا في (مجلة المجمع العلمي العراقي
تحت عنوان (مبحث في سلامة اللغة) و (المصباح
النذير ، للمصباح المنير) و (قل ولا نقل) و (فقه
اللغة العربية) على حسب مباحث العلم الحديث في
المباحث اللغوية ، وقال : ان فيه مباحث من تبيـل
الابداع ، لا التحسين والاتباع ، (وكتاب القلب
والابدال) قال : وتغلب عليه الجدة والاستنباط .
(و نهج السداد ، في كلام النقاد) و (معجم الجمل
العربية - الفرنسية) وحقق ونشر بالاشتراك
(الجامع الكبير) لابن الأثير في البلاغة . وقد كان يعرف
الى جانب العربية والفرنسية الفارسية والالمانية .

وهو كذلك ذو اطلاع واسع في التاريخ وروعه
المختلفة من تاريخ الحوادث والتراجم والحركة الفكرية
ووصف البلدان وأتوال الرحالين والادباء في ذلك .

وقد نشر في هذه الموضوعات كثيرا من المؤلفات
والبحوث والدراسات ، وحقق كثيرا من المخطوطات

مثل دراسته عن (ابن الفوطي / وعن (بقية
الادارة بمصر) ، وعن (أصلهان ، معقل الادب
العربي في ايران) و (معجم مواضع واسط واعيان
واسطيون من حملة العلم والاثر) و (الثقافة العقلية
والحال الاجتماعية في عصر ابن سينا) و (الفتوة
وأطوارها واثرها في توحيد العرب والمسلمين) و
(جاوان القبيلة الكردية المنسية ومشاهير الجاوانيين)
و (علم ابن النديم باليهودية والنصرانية) وكلها نشرت
بمجلة المجمع العلمي العراقي ، و (سيدات البلاط
المباسي)

كما نشر بالاشتراك (دليل خارطة بغداد) وحقق
وعلق ونشر (الجزء التاسع من الجامع المختصر)
و (نساء الخلفاء) كلاهما لابن السامي . و (تكملة
اكمال الاكمال) لابن الصايوني ، و (المختصر المحتاج
اليه من تاريخ ابن الدبشي) والقسم الرابع من
(تلخيص مجمع الآداب لابن الفوطي) . وهذه الآثار
- وغيرها - من آثار الفقيه الى جانب كونها تدل على
سعة ثقافية وتنوعها وصحتها وأصالتها ، تتسم في
الغالب بطابع التحقيق العلمي ، من جهة .

وتدل من جهة أخرى على ما كان يتصف به
الفقيه من الكثير من أخلاق العلماء ، من التثبت والتجري

التعلمين الى الميدان — وميهم من يحملون شهادات عليا من جامعات اجنبية — وتياهم بأعمال مشوهة باسم التحقيق العلمي ، ممن دعا الى وضع رسائل عن المنهج العلمي لتحقيق المخطوطات ، فيها الاصيل وفيها المنقول .

وتد كان النقيذ — رحمه الله — من ابرز العاملين في ميدان التحقيق العلمي للمخطوطات ، ولكننا لا نعرف له رسالة خاصة أو مقالا عن المنهج العلمي لهذا التحقيق (1) وبالرجوع الى بعض أعماله في هذا الميدان نستطيع استخلاص بعض آرائه في الموضوع .

وستنخذ عنه في رسالة (نساء الخلفاء) لابن الساهي التي نشرتها (دار المعارف) بمصر بدون تاريخ ضمن سلسلة (ذخائر العرب) رقم 27 مرجعا في هذا البحث .

1 اسم الكتاب

سمى المؤلف كتابه (جهات الخلفاء من الحرائر والاماء) وسماه صاحب (كشف الظنون) (نساء الخلفاء) نجيب المحقق بين الاسمين بتقديم الثاني لوضوح معناه ، وتأخير الاول نظرا لعدم استمرار استعمال كلمة (جهة) فيما كانت تستعمل فيه .

2 مؤلف الكتاب

لم يكتب اسم المؤلف على النسخة الوحيدة المعروفة من الكتاب .

وقد نسبة الاستاذ مكرم بن خليل مدرس التاريخ بجامعة استانبول الى كمال الدين عبد الرزاق المعروف بابن الفوطى المؤرخ ، متصدي المحقق لبيان بطلان هذه النسبة التي لا دليل عليها لا في الكتاب ولا خارجه ، وقدم أربعة أدلة على انه لابن الساهي لا لابن الفوطى استغرقت خمس صفحات .

ثم بين خطأ اهمال كتابة اسم المؤلف على الكتاب ، وذكر ان المؤلف المعروف في زمن قد تذهب شهرته أو كثير منها في عصر آخر وأورد امثلة على ذلك

3 التعريف بالمؤلف وعصره

لقد كان الترتيب الطبيعي يقتضي تأخير التعريف بالمؤلف وعصره الى ما بعد اثبات انه ابن الساهي لا

عساه يكون قد صدر منه اثناء الكتابة من خطأ ، وبعد فراغ الطالب من مقابلة جميع الكتاب مع المؤلف يكتب له المؤلف بخط يده وتوثيقه على نسخته شهادة بان الطالب قد قرأ عليه هذا الكتاب وقابله معه حتى أصبحت نسخته هذه طبق اصل المؤلف ، ويضيف المؤلف لذلك ما مؤداه اعترافه بان هذا الكتاب من تأليفه وانه موافق على صحة هذه النسخة باذنه لهذا الطالب (واجازته) له ان يروي عنه هذا الكتاب ، وهكذا يفعل هذا الطالب عندما يصبح استاذا مع طلبته ، منتزعا من نسخة المؤلف الاصلية لمروع طبق الاصل بقدر من تراوها على المؤلف وقابلوها معه واجاز لهم روايتها عنه ، ثم تنزع عن كل نسخة من هذه النسخ المطابقة لاصل المؤلف نسخ عديدة طبق الفروع المنسوخة منها ، وهكذا دواليك .

وقد عرف تاريخ الثقافة الاسلامية نسخا اصلية مصححة ومقابلة استمرت الاجيال المتعاقبة في مختلف الاقطار تتناقلها وتقابل عليها الفروع المستنسخة منها ، وتتصل روايتها عن مؤلفها أو ناسخها بالسند المتصل جيلا بعد جيل ، وكان اهل العلم يتناسون ويتغالون في الحصول على هذه النسخ ويمرغون لها تيمتها . على انه لا نكران انه كان الى جانب هؤلاء المثبتين المتحرين الممتنين طائفة اخرى من النساخ الجاهلين الذين لا ذمة لهم ، مما استحقوا معه ان يسموا بالماسخين !

وظهرت المطبعة العربية اول مرة في اوربا وقام احاجم غير مسلمين بطبع بعض المخطوطات العربية لاغراض خاصة . وعلى نطاق محدود ، وكانت عندهم امكانيات مادية كافية ، ولم يكن بعضهم يخلو من معرفة وروح علمية .

وعندما انتقلت المطبعة العربية الى البلاد ذات الثقافة العربية قامت بعض المؤسسات الرسمية باسناد مهمة تصحيح المطبوعات العربية الى طائفة من اهل العلم ، فنشرت مخطوطات مهمة لا تنقصها الصحة في كثير من الاحيان ، ولكن تحول نشر المخطوطات الى عملية تجارية كان نكبة نظيمة للكتاب العربي مسخته مسخا ثانيا ، مما دفع بعض المخلصين للنسرات العربي في بعض البلاد العربية الى القيام بهركات لاتخاذ الكتاب العربي بنشره نشرًا علميا .

ولكن هؤلاء المحققين لم يسلكوا منهجا واحدا في التحقيق ، وزاد الامر تعقدا تسرب جماعة من انصاف

(1) علمت بعد القاء هذا البحث في المهرجان التابيني ان له بعضا مخطوطا في الموضوع .

(5) اصلاح اخطاء النسخة

ذكر المحقق انه صحح ما في النسخة من خطأ النسخ ، بالناسخ نقل في عدة مواضع ما لم يلهمه من الكتاب ونسخ ما هو غير واضح ، الى اخطاء املائية يرتكبها .

وقد حدث خلل في النسخة : وهو ان تسما من اخبار احدى المترجمات ادغم في اخبار ترجمة اخرى ، فاستوجب ذلك تنبيها واصلاح الخلل ، ولم ينبه على ذلك احد قبل المحقق .

ونشير الى ان من محققي المخطوطات من يحافظون على ما في النسخة كما هو صوابا وخطا ، ثم يعلتقون في الحاشية ببيان الاخطاء ووجه الصواب فيها ، ومنهم من يصلح الاخطاء ، في الاصل ويذكر في الحاشية ما كانت عليه في المخطوط ، ووجه اصلاحها .

وقد سلك الفقيه هذا المسلك الاخير في (نساء الخلفاء) اربعا وعشرين مرة ، منها ما هو خطأ نحوي ، ومنها ما هو خطأ في الاعلام ، ومنها ما اصلحه اعتمادا على المصادر ، ومنها ما اصلحه لعدم مناسبته المقام ، ومن امثاله :

ومطربها (بمعزفه) ... يؤوب الى نواحيها .
مكان (بمعرفة) قال : لا محل للمعرفة فيه ، وانما العبرة في سيرورة المطرب بمعزفه الى النواحي !

ولكن المحقق ابقى اخطاء اخرى على حالها ونبه على خطئها مثل (الرزازين) التي هي تصحيف الزرادين و (تضر الخلافة) والصواب تضر الرفاة) (وظهرسي) الداعي العلوي ، وهو قريب من ظهر ابن الداعي العلوي .

وتارة بيتي. الخطا على حاله ويضيف كلمة (كذا) اليه . هذا كله نيبا اتضح فيه وجه الخطأ ، اما ما كان محتلا مانه يبقيه على حاله ويذكر الاحتمال في التعليق ، فقد وردت في المخطوط - مثلا - كلمة (فتلبتها) ويجوز ان تكون (فتلبتها) كأنها عملت ذلك احتراماً لمهديها .

(6) هل الكتاب تام أم ناقص ؟

استظهر المؤلف في تعليق (ص 53) انه ناقص .

(7) هل التزم المؤلف شرطه ؟

ختم المحقق تصديره بان المؤلف لم يلتزم شرط

ابن الفوطي ولا غيره ، ولكن المحقق رأى ان الادلة التي قامت له على انه ابن السامي تنفي كل احتمال يمكن في انه لغيره ، فلذلك تجاهل هذا الاحتمال اولا وتصدى للتعريف بمصر المؤلف والمؤلف فأورد ما قاله ثمانية من الرحالين والمؤرخين من الحالة السياسية في عصر المؤلف . وأورد قائمة بأسماء بعض الشعراء والمعلماء ، بمعنى العلم الصحيح ، والمؤرخين .

وفي كلامه على سيرة المؤلف ، ذكر مولده ، وأشار الى عدم وجود ذكر لوالده في التاريخ ، وبين معنى السامي وسامع المؤلف للحديث ، ودراسته الادب والتاريخ ولبسه خرقة التصوف وشيوخه .

ثم ذكر ان بعض من ذكروا المؤلف التمس عليهم اسمه ابن السامي بابن الساماتي ، وبين غلطهم .

وان ابن السامي عرف بالخازن ، وبين معناه وذكر أسماء بعض من كانوا يختلفون الى دور الكتب في هذا العصر ، وان ابن السامي ألف اكثر كتبه في أيام الدولة العباسية ، وان العباسيين كانوا يجيزونه عليها ، وأضاف : وهذا يطعن في حياده عند أهل التحقيق والتدقيق !

ثم ذكر بعض من استمد من تأليفه ، وقيمته كمؤرخ وضعف طعن من طعن فيه ، ثم أورد قائمة بأسماء مؤلفاته ومن ذكر كل واحد منها .

ويقع هذا التصدير في 40 صفحة بالحرف الصغير بينما تقع الرسالة بتعاليقها في 92 صفحة اغلبها بالحرف الكبير .

هذا - وقد سبق للمحقق ان حقق ونشر (الجزء التاسع مع المختصر ، في فنون التواريخ وفنون السير) لابن السامي . ومصدره بمقدمة ترجم فيها المؤلف ، وذكر نظم الدولة العباسية في اواخر عهدها، والخلافة على عهد الناصر لدين الله فيعتبر عمله في تصدير (نساء الخلفاء) تنبيها لعمله السابق .

(4) مصدر النسخة وصفتها

ذكر المحقق - في التصدير - كيف علم بوجود النسخة ومكانها ، وكيف تم تصويرها ثم اخراجها على الورق وقيامه بنسخها ، ووصف خط النسخة وذكر تاريخها .

كتابه بتضمينه آياه نساء الخلفاء ، فقد اضاف اليه من نساء السلاطين والامراء .

(8) تشكل الكلمات -

ويولي التقييد رحمه الله مناية خاصة للكلمات التي تحتل الخطا عند النطق بها فيشكلها بالحركات مثل : المكبري ، وبفا والديشي ، والسهورودي ، والجنابذي ، وخاروييه ، وبنفشا ، والصلح .

وضبط شمة بفتح الشين والميم ، فزارا من قول من قال : ان تسكين الميم من كلام المولدين - وان لم ينبه على ذلك - .

واحيانا يناقش المصادر في ضبطها لبعض الكلمات .

فمريب ضبطها الذهبي بالضم . ولكن ورد في الجزء الثامن عشر من الأغاني شعر يدل على ان المعين مفتوحة والراء مكسورة .

وبنان بضم الباء وضبطها مصححوا كتاب الاغاني بدار الكتب المصرية بالفتح .

(9) تفسير الكلمات المحتاجة الى تفسير

سمى المؤلف كتابه (جهات الخلفاء) - جمع جهة وهي كناية من زوجة الخليفة او حظيته ، او زوجة السلطان او حظيته ، استعملت كذلك في العصر السلجوقي وما بعده ، واريد بها احيانا السيدة المتزوجة مطلقا . ووردت كلمة (البدنة) في كلام المؤلف واحمد ابن ابي طاهر وابي جعفر الطبري ، بدون تفسير ففسرها واستعمل المؤلف كلمة (الفابرين) بمعنى الباقين وهذا هو الوجه الصحيح في استعمال الفابرين وهو الوارد في القرآن الكريم ، واما استعمال الفابر بمعنى الماضي وكونه من الاضداد كما عند ابن الاثيري فنأثسه - من رأى الحق - من تصحيح المابر بالمعين البهلة .

(10) التعريف بالامثلة الواردة لذكرها في النص

اذا ورد ذكر مكان ، وكل الامثلة الواردة ذكرها من بغداد ، فان المعلق يعين المحل الذي كانت توجد فيه .

فمصور دار الخلافة ومرافقها كانت في الشارع المعروف اليوم بشارع المستنصر بالله في بغداد الشرقية .

ومحلة نهر عيسى تسمى اليوم محلة السوق الجديد من الجانب الغربي من بغداد وما قاله ياقوت عن نهر عيسى مأخوذ من تاريخ الخطيب البغدادي ، واكثر ما في تاريخ الخطيب مأخوذ من كتاب انهار العراق لابن سرائيمون .

والظاهر ان سوق الخبازين كان مجاورا لدرب الخبازين المعروف اليوم بدرب العاتولية بشرق بغداد ويعرف بسوق الحيدر خانة .

ومن المعروف ان المحقق الف في هذا الموضوع بالاشتراك - كما سبق القول - (دليل خارطة بغداد) .

(11) التعريف بالاشخاص

يلحق المحقق - غالبا - على اسم المترجمة في الكتاب بذكر مراجع ترجمتها ، وبعض المراجع التي لها فيها ذكر ، مطبوعة ومخطوطة ، مع ذكر الجزء والصفحة وكان الطبع وتاريخه - غالبا في كل ذلك - ويذكر في المخطوط - زيادة على الجزء والصفحة - المكتبة التي يوجد بها ورقمه ، والمكتبة التي توجد بها صورة منه ان كانت هي التي رجع اليها ، ويكرر ذلك كلما ورد ذكر الكتاب .

وقال عن واحدة انه لم يجد لها ذكرا في كتسب التاريخ والادب التي وصلت اليها يده سوى كتاب واحد وقال عن اخرى انه لم يقف على ذكر لها في كتاب آخر .

ولكنه لم يشر الى مراجع 16 ترجمة ، فالظاهر انه لم يقف على ذكرهن من غير ان ينبه على ذلك .

(12) الرجوع الى المراجع التي اهل عليها المؤلف

من ايسر توامد التحقيق العلمي ان يتأكد المحقق مما ينقله المؤلف من مرجع من المراجع . فمعرفة هل هو موجود فيه أولا ، واذا كان موجودا لما هو بمقدار مطابقته لما نقله منه المؤلف .

وقد نبه المحقق على عدم وجود بعض ما ذكره المؤلف في المصدر الذي رجع اليه .

محمد بن الأخضر ، ومحمد بن داود هو ابن الجراح ،
والشهور بأبي عبد الله الحنبلي في عصر ابن النجار
هو أبو عبد الله محمد بن مكى بن أبي الرجاء الملقب
تقي الدين .

(15) التنبيه على أوهام المراجع

ويولي التقيد رحمه الله عناية بالغة للأوهام
الواقعة في المراجع يهتم بالتنبيه عليها وبيان الصواب
فيها ، فقد نسب ابن خلكان للسماعاني انه ضبط كلمة
جهير بالضم وهو غلط ، مع ان الوارد في (الانساب)
هو الفتح ، وكذلك ما في مختصره (اللباب) .

وبنان بضم الباء ، وضبطها محققوا كتاب الاغانى
بدار الكتب المصرية بفتحها .

وظن ابن ثغرى بردي ان ابن السامى كان حنفيًا
مع انه شافعي ، وقد نبه المحقق على ما يمكن ان
يكون السبب في ظنه هذا .

وذكر علي بن الحسن الخزرجي ابن السامى
نسباً ابن الخازن والصواب الخازن .

ومن مؤلفات ابن السامى (الاحاديث الثمانية) .
وقد ورد في بعض المصادر (البيانية) من غلط النسخ
او الطبع .

ولابن السامى كتابان في نساء الخلفاء ، وقد
حسبها الذهبي وبعده الصفدي وتابعه ابن ثغرى
بردي كتاباً واحداً .

وسمى المؤلف احد شيوخه عبد العزيز بن
المبارك ، وجاء في (تذكرة الحفاظ) للذهبي : عبد
العزيز بن مسمود ، وهو خطأ ، ولم يصحح هذا
الخطأ مصححو « معجم البلدان » (طبعة دار صادر
ببيروت) .

وذكر ياقوت باب الحول من الجانب الشرقي من
بغداد والصواب الغربي .

وتردد صاحب مختصر بغداد في نسبة خبر
للمعتضد او المعتد والصحيح انه المعتد .

ولقب ابن النجار في (النجوم الزاهرة) بمجد
الدين بدلا من محب الدين وهو من خطأ النسخ وعدم
التصحيح في الطبع !

مقد نقل المؤلف من الجهشياري فلم يجد المعلق
الخبر في المطبوع من كتاب (الوزراء والكتائب) لان
المطبوع ناقص كما هو معلوم .

ونقل المؤلف من ابن الجوزي فلم يجد المؤلف
الخبر في (المنتظم) لانه انتهى قبل ذلك التاريخ ،
فالظاهر ان هذا الخبر من (درة الاكليل) .

ونقل المؤلف من ابي بكر الصولي فاستظهر
المعلق ان المؤلف اخذ هذا القول مما ذكره ابو الفرج
في اخبار ابي المعاهدة .

واورد المؤلف كلاما مضطربا فاصلحه المعلق من
(مروج الذهب) . والذي جرت به عادة محققى
المخطوطات وعليه درج التقيد في كثير من تحقيقاته ،
(تلخيص مجمع الآداب) مثلا ، بيان جزء المصدر
والصفحة الذين يوجد فيهما ما نقله المؤلف .

ولكنه اهل هذا في تحقيقه (لنساء الخلفاء)
مقد ذكر المؤلف في ترجمة (عنان) ان لها اخبارا مدونة
ذكرها ابو الفرج الاصلهاني في (كتاب الاغانى) وذكر
المعلق في مراجع ترجمتها الاجزاء : العائش والمشرى
والثالث والمشرى المخطوط . ولكنه لم يذكر في اى
جزء من هذه الاجزاء يوجد انه ما نقله المؤلف .

وكذلك في ترجمة مريب ، وبدعة الكبيرة .

وكذلك فيما نقله من (كتاب بغداد) لاحمد بن
ابي طاهر ، ونقل من كتاب (الورقة) لابن الجراح
مذكر المعلق ان المطبوع منه ناقص ، ولكنه لم يشير الى
ما اذا كان ما نقله المؤلف موجودا في المطبوع اولا .
الى غير ذلك .

(13) التعريف بالمراجع

وقد يضيف المحقق التعريف بالمرجع الذي نقل
منه المؤلف مقد نقل عن تاريخ ثابت بن سنان بن قرة ،
فنقل عن التفتي التعريف بهذا التاريخ ، وبيان المدة
التي ارضها واهيته .

(14) ايضاح المبهات

فالحافظ أبو عبد الله البغدادي هو محب الدين
محمد ابن النجار وأبو القاسم الأرجي هو يحيى بن
أسعد بن بوش ، وأبو أحمد الأمين هو عبد الوهاب
ابن سكين ، وأبو محمد الجنابلي هو عبد العزيز بن

وذكر محقق الكتاب الدكتور الفاضل محمد حبيد الله انه مع سميح لم يكثر على ترجمة القاضي الرشيد ، مع انه مترجم بتفصيل في مصادر اوردها المحقق . وهو من اهل القرن السادس لا الخامس . ثم قال : ونسبة الكتاب المذكور اليه - وهو من تأليف القرن الخامس - خطأ مبين يجب اصلاحه ، ولعله من مؤلفات ابن بابشاد المشهور .

و (طبقات الشعراء) منسوب لابن المعتز .

18) التنبيه على نقصان بعض الكتب

الظاهر ان ترجمة عبيد الله بن احمد بن ابي طاهر تقدمت فيها نقد من (معجم الادباء) .

والمطبوع من (كتاب الوزراء والكتاب) للجهمياري ناقص كما هو معلوم ، وما اكثر المفقود منه !

والمطبوع من (كتاب الورقة) (بعناية دار المعارف !) وتحقيق الاستاذين الدكتور عبد الوهاب عزام وعبد الستار نراج خال من الترجمة التي نقلها ابن الساعي بالنسخة ناتمة .

وقد ورد في (اخبار النساء) خبر منقول عن (الورقة) لا يوجد في المطبوع .

وفيها نقل عن احمد بن ابي طاهر لذكر له في المطبوع منه المعروف (باخبار بغداد) .

ونقل عن تاريخ هلال بن محسن الكاتب لذكر له في المطبوع منه الملحق (بتاريخ الوزراء) لهلال المذكور ، فهو ناقص .

19) التنبيه على خطأ تسمية بعض المؤلفات

كان العقيد قد صحح تديما مخطوطا غسلا من التسمية وتسمية المؤلف ، سماه في المطبوع (الحوادث الجامعة) لكمال الدين ابن الفوطي ، وقد صدره ناشره بمقدمتين اولاهما بقلم صديقنا الاديب الكبير محمد رضا الشيبيني رحمه الله ، وقد جاء فيها : (ومن رأيي - وقد تصفحت الكتاب - انه كتاب (الحوادث والتاريخ) لمؤلفه ابن الفوطي ، وزاد : وان لدينا من الادلة ما يكفي في نسبة هذا الكتاب الغفل الى العلامة المذكور .

وذكر ابن جبير دار ابي الفرج ابن الجوزي : مع انها مدرسة بنفشأ وكان يسكن فيها لانه كان مدرسا يومئذ .

وكان انشاء تربة هون ومعين ايام الناصر . واخطأ الصلاح الصفدي فنسب عبارات الناصر ومنها تربة هون ومعين الى ابيه محمد الظاهر .

ووقع في ترجمة ثابت بن سنان في تاريخ الحكماء للقطبي اضطراب في تاريخ وماتته : حيث ذكر مرة انها كانت سنة ثلاث وستين وثلاثمائة ، ومرة سنة خمس وستين وثلاثمائة . وورد اسم (شاهفرند) في تاريخ الطبري وفي الكامل شاه آفريد ، وفي بعض نسخ (مروج الذهب) للسمودي (سارية) وهو تصحيف .

ورجح ابن خلكان ما ورد عند العماد في (الخريدة) على ما ورد عند السمعاني لظنه ان بينهما تعارضا . فبين المحقق انه لا تعارض بينهما .

وورد ذكر ابي بكر ابن العلاف ، فذكر الملحق مصادر ترجمته وقال : وهو صاحب الابيات المشهورة في رثاء المبرد ، وليست هي لثعلب كما ذكر الكمال بن الانباري في (نزهة الالباء) .

16) التعريف بمؤلفي بعض المخطوطات الغفل

نقل المحقق عن (ذيل تاريخ بغداد) لابن الديبشي ، نسخة كمبردج ، وزاد : ولم يعلم المفهرس انه تاريخ ابن الديبشي وقد حققنا ذلك وتأكد لنا .

17) التنبيه على الخطأ في نسبة بعض المؤلفات لمؤلفيها

تقدم انه بين ان (نساء الخلفاء) لابن الساعي لا لابن الديبشي ، ومن مؤلفات ابن الساعي (اخبار الخلفاء) ، واما هذا المطبوع المسمى (مختصر اخبار الخلفاء) فهو مدسوس عليه نخله اياه بعض المزورين الذين اعتادوا التزوير في كل امورهم وشؤونهم !

و (المحاسن والاضداد) منسوب خطأ للمحافظ . وكتاب (الذخائر والتحف) مجهول المؤلف ، وقد نسب الى القاضي الرشيد ابن الزبير ، وكتب تحتها (القرن الخامس الهجري) . قال المحقق : وكل ذلك خطأ على خطأ !

وثانية المقدمتين بقلم الفقيده ، مصحح الكتاب والمعلق عليه ، وقد اورد اسم (الحوادث الجامعة) بدون نقاش .

وذكر اول من نسبه لمؤلفه في عصرنا .

ولكنه في تعاليفه على (نساء الخلفاء) يقول : الكتاب الذي سميناه (الحوادث الجامعة) استرجاحا لظهور انه غيره !

(20) التنبيه على قيمة بعض الطبقات

ينقل المحقق من (وفيات الاعيان) طبعة بلاد المعجم ، ثم قال عنها انها اصح من الطبقات الاخرى .

(21) اضافة ملحق للكتاب

اضاف المحقق الى (نساء الخلفاء) ملحقا اورد فيه اخبارا متعلقة ببعض المترجمات في الكتاب وردت في (الذخائر والتحف) السابق الذكر .

(22) الفهارس وقائمة المراجع

الفهارس مفاتيح الكتب ، فالكتاب الذي لا يفهرس له تكون الاستنادة منه صعبة وفي نطاق محدود . ولهذا كان وضع الفهارس من اهم ما يقوم عليه المنهج العلمي لتحقيق المخطوطات .

وقد اختلف موقف الفقيده من هذه القاعدة فهو تارة يضع الفهارس اللازمة والتنوعة ، مثل ما فعل في جزء (الجامع المختصر) .

حيث اضاف له خبسة فهارس احدها للكلمات المفردة وآخر ممراني للاخلاق والمعادن والشؤون الاجتماعية ، وفي (تكملة اكمال الاكمال) لابن الصابوني حيث اضاف له اربعة فهارس ، ثالثها للفوائد الشارحة وفي (الجامع الكبير) لابن الاثير ثمانية فهارس .

وفي (دليل خارطة بغداد) فهران .

وتارة اخرى يكتبي بفهرس مختصر مثلما فعل فيما سماه (الحوادث الجامعة) .

ومثل جزاي (المختصر المحتاج اليه من تاريخ ابن الدبيثي) حيث ذكر في الاول مراجع التصحيح والايضاح والتراجم ، وفي الاخير ثبتا مختصرا للمترجمين في الجزء ، ومثل القسم الثالث من الجزء

الرابع من (تلخيص مجمع الآداب) لابن الفوطي حيث اقتصر على فهرس ابواب هذا القسم الثالث من الكتاب ، ووعد ان يثبت في القسم الرابع والاخير منه الفهارس العامة التفصيلية للجزء الرابع كله ، ولم اقف الا على القسم الثالث وحده .

ولكنه تارة ثالثة لا يضع فهرسا بالمره مثل سيدات البلاط العباسية و (نساء الخلفاء) .

واذا كان مظهر (سيدات البلاط) لا يدل على طابع تحقيق علمي ، لخلوه من التعليقات والمصادر تاخرى الصفحات وما يتبعها ، الى جانب الصورة التي على الغلاف !

فان النسخة التي وقلت عليها من (نساء الخلفاء) خالية من الفهارس والمراجع ، فما ادري استطلعت من هذه النسخة فقط ، ام ان المحقق رأى ان صغر الرسالة في غنى عن الفهارس ، او انها الفيت من طرف الدار (اعتمادا في الفتحات !

(22) اخطاء الطبع

تلما يسلم مطبوع من خطأ مطبعي ، و (نساء الخلفاء) التي بذل محتقها رحمه الله جهودا في التحقيق والضبط لم تسلم من خطأ مطبعي !

ومن امثلة ذلك في ص 60 بفتح الواو والصواب الميم ، وفي 135 السادس والصواب الخامس ، وفي 124 الجبازين والصواب الخبازين ، وفي 120 واقرت والصواب واقرت .

وكثير من محققي الكتب يوردون في آخر الكتاب جدولا للخطأ والصواب ولم يرد في (نساء الخلفاء) شيء من ذلك !

(23) نماذج مصورة من الاصل

في اول الكتاب صور 3 صفحات من المخطوط لتمكين القارئ من تكوين فكرة عن المخطوط .

الاستطراد

ومن مظاهر اتساع ثقافة المحقق استطراده العابر الفقيده .

فالتصوف والتشيع اخوان ، واوقف ابن السامي كتبه على المدرسة النظامية قبل موته بتليل ، كما هو

وهذه العبارة الاخيرة ليست من باب التواضع ولكنها الحقيقة الواجبة ، ومدق الله العظيم : (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا)



هذه صورة من ثقافة التقيد و اخلاعه العلمية كما تتجلى للناظر في كثير من آثاره ، ومنها يتجلى انه رحمه الله كان علما بارزا من اعلام النهضة الثقافية العربية في هذا العصر .

ولعل مما ساعده على ذلك انه تنكف في اول امره ثقافة اسلامية عربية متينة خالصة ، ولم يتصل بالفكر الاجنبي الا بعد ان تكونت شخصيته تكوينا سليما ، فلم يصب بما أصيب به الكثيرون ممن اتصلوا بالفكر الاجنبي في هدائهم فنجح في مسخ شخصيتهم ، وقطع صلتهم بترائهم الفكري والحضاري المجيد .

رحم الله التقيد رحمة واسعة ، وجزاه احسن الجزاء ، كفاء ما قدم من خدمات جليلة للغة العربية وتراثها واحسن عزاء الامة العربية التي تقدمت ليه ركنا من اركان نهضتها ، ووفق تلاذته لمواصله أداء رسالته في خدمة اللغة العربية وتراثها ، وعسى ان يقوم المجمع العلمي العراقي بجمع جميع مقالات التقيد وبحوثه المتفرقة في اعداد مجلة المجمع وغيرها من المجلات وطبعها حتى يعم الانتفاع بها ، وتسهل الاستفادة منها ، فان مجلة المجمع - مثلا - على اهميتها الكبيرة محدودة الانتشار جدا في الوطن العربي.

كما ان من الواجب الاكيد ايلاء عناية خاصة لآثار التقيد المخطوطة حتى تخرج للوجود ويستفيد منها تراء العربية في كل مكان .

وشكرا جزيلا لوزارة الارشاد على ثبنيها لهذا العمل الجليل واتاحتها لهذه الفرصة التي مكنت زمرة من اهل الفكر العربي والاسلامي بالاف العلماء والمؤلفين الذين انجبتهم في عصورها الزاهرة ، والذين قاد الكثيرون منهم الفكر الاسلامي والعربي في مختلف انحاء الوطن العربي والاسلامي عدة ترون .

عادة العلماء الوائمين كتبهم على المدارس ، وفعل ذلك قبله ابن النجار ، ودلان ابن الساعي بمقبرة الشوينزية بالجانب الغربي من بغداد ، وهي مقبرة الصوفية وذوي المشرب الصوفي وان لم يتصوموا ، وفيها دفن الجنيد الصوفي الزاهد المشهور ، ولا يزال قبر الجنيد معروفا مزورا .

ومن شيوخ المؤلف ابو البقاء المكبري المنسوب اليه (شرح ديوان ابي الطيب المتنبى) المطبوع غير مرة مع انه تأليف عفيف الدين علي بن عدلان الموصلى المتوفى سنة 666 هـ .

الاعتراف بالجميل

وقد كرر المحقق التتويه بفضل ماسينيون الذي كتب اليه مخبرا بوجود المخطوطة في استانبول . كما نوه بالاستاذ (احمد آتش) التركي الذي صور المخطوطة بالمايكروفيلم (يعني الشريط الدقيق) .

وهكذا تجد التقيد يعترف لكل ذي فضل بفضله ولا تشمر انه يحاول غبط حق احد ممن يرد ذكركم في كلامه ، وهو اذا كان حريصا على بيان الاخطاء التي وقع فيها المؤلفون لماته يعبر عن ذلك بمبارات مهذبة ولبقة ، مع التماس الاذار لكل مخطيء غالبا ، وفي كثير من عباراته التي اوردناها سابقا امثلة على ذلك .

وقد علق على وصف الموفق بالامام : ولم يكن الموفق اماما اي خليفة ، بل كان ولي مهد ، فان صح ان هذا قول المؤلف فهو خطأ ، ولعل الاصل الامير .

التواضع

ويرجو المحقق ان لا تخلو تعاليقه من رائدة يقطعها القارئ في أثناء تراءته الكتاب ، والباهت عند استمداده منه ، ويزيد : ولا ابرى نفسي من تصبير ولا من ذهول فان نشر كتاب مخطوط اول مرة لا يبلغ الكمال في كل الاحوال .

الفكر العلمي العربي

في شخص العباس بن فرناس

حكيم الأندلس
الأستاذ سعيد السويدي
عضو مجمع بعلمى العراقة

ومناظرات ومجادلات علمية ، وما يلقيه علماء الأندلس
من طريف ما أخذوه من المشاركة .

ويقصد المجالس الأدبية ، ويستمع الى شيوخها
استماع متبصر ، يريد أن يستفيد مما يجري في
الحلقات والمجالس ، مما كان يلقيه شعراء الأندلس
وأدباؤها من جميل النظم والنثر ، ومن غريب
الأخبار واللغة التي أخذوها من أهل المشرق .

وكان يتردد الى أصحاب الفنون الرفيعة ،
فيستمع الى الاصوات التي وضموها ، والآلات
الموسيقية التي يوتعون عليها .

درس كتب الطب ، وخصائص الأمراض
وأعراضها ، وطرق الوقاية منها ، وملاج من أصيب
بها .

درس خصائص الاحجار والامشاب والنباتات ،
ووقف على ما تفيد في المعالجة ، وكان يقصد الاطباء
والصيادلة ويناقشهم فيما ظهر له من اطلابه وتجاربه
في هذا العلم الجليل ، الذي يحفظ صحة المجتمع ،
ويقيه شر الاسراف .

ابو القاسم عباس بن فرناس بن ورداس التاكروني
الاموي بالولاء - احد اساطين العلم والادب والفن في
الأندلس .

لم نقف على ولادة هذا العالم الجليل ، والذين
ترجموا له ذكروا : انه توفي سنة 274 هـ (884 م)
وانه اربى على الثمانين ، فتكون ولادته في آخر
القرن الثاني للهجرة (حوالي سنة 194 هـ)

أصله من برارة « تاكرونا » ونشا في قرطبة ،
عاصمة الدولة الاموية ، وهي - اذ ذاك - مركز العلم
والادب والفن في أوروبا ، يشدون اليها الرحال ،
ويقتبسون من معارف العرب وفنونهم وصناعاتهم ،
التي كانت تبهر عقولهم ، وتأخذ بالبابهم .

في هذا المحيط الزاهي بالعلوم والمعارف ، شب
ابن فرناس ، وكان ذكي الفؤاد ، سريع الحفظ ، دقيق
النظر .

تعلم القرآن الكريم ، ومبادئ الدين الحنيف
في الكتابيب التي كانت كثيرة في قرطبة ، ثم أخذ
يرتاد الحلقات العلمية ، التي كانت تعقد في جامع
قرطبة ، ويستمع الى ما يجري فيها من محاضرات

واشتهر بين اطباء عصره ، فانخذ الامراء الامويون (1) طبيباً خاصاً لمعالجة الاسرة الحاكمة ، يشرف على صحتهم وطعامهم ، ويؤشدهم الى انجح الطرق في معالجة مرضاهم .

درس الفلسفة والمنطق والنجوم والعلوم الروحانية ، وجمع الكتب التي تبحث عنها ، والتي صعب الحصول عليها ، وقرأها قراءة مدققة ، واستفاد منها والناد قومه .

اشغل بالنحو ودقائق الامراب ، واطنح على آراء النحاة في التعليل وصار من نعاة عصره في الاندلس ، يؤخذ عنه وذكره الريبدي في الطبقة الثالثة من نعاة الاندلس ، وقال عنه : كان متصرفاً في ضروب من الاعراب .

كان يقصد اهل الصناعات الرفيعة ، ويدقق باعمالهم وصناعاتهم ، وفنونهم الدقيقة ، ويسألهم عن سر ما لم يهتد الى معرفته بنفسه ، فاقتبس منهم صناعات ومعارف ساعدته على ابراز ما علمه ، مما يحتاج الى عمل آلات عملية .

وهكذا صار ابو القاسم العباس بن فرناس متضلماً بعدة علوم وفنون وصناعات ، وآداب مختلفة ، فبرز على علماء زمانه ، بما انفرد به من معارف وعلوم لم تنهيا لغيره من اهل الاندلس ، حتى انهم اطلقوا عليه « حكيم الاندلس »

- 2 -

كثير هم الذين قنعوا من العلم بالامور البسيطة ، التي يسهل لهمها . وبالنظريات المجردة ينقلونها عن غيرهم ، ولم يكلفوا انفسهم عناء البحث والتدقيق فيما درسوه ، او تحقيق ما علموه ، ولم يحاولوا تطبيق العلم على العمل ، ليتأكدوا من صحة ما نقل اليهم ، او اخذوه عن غيرهم .

وابو القاسم لم يكن من هذا الرميل القانع بالسهل المبسط ، بل كان يدقق ما يدرسه ، ويحقق ما يفهمه ، ويتدبر ما يقرأه ، ويطبق عملياً ما يحتاج الى العمل ، ليتأكد صحة المدعى ، ويستفيد مما اخذ ، فهو احد العلماء العاملين ، الذين وضعوا اساس الحضارة العلمية والمطوية في الاندلس : سهلوا العويص ، وشرحوا الغامض ، ويسروا المر ، وابتكروا آلات علمية ومعارف عملية .

فابو القاسم من العلماء الذين علموا وعملوا : مكف على تحقيق القضايا التي درسها ، وهيا لنفسه ما يحتاجه عمله من آلات دقيقة ، وادوات مختلفة والايهزة العلمية - التي ساعدته على اظهار علومه ومعارفه عملياً ، ورسم طريقة مثلى لاهل بلاده . وهي محاولة تطبيق العلم على العمل ، بحيث يحققون ما يدرسونه ، ويصنعون لانفسهم الآلات والادوات العلمية التي يحتاجونها من غير ان يتكلموا على غيرهم ، وبدا يحق لهم ان يكونوا علماء عاملين ، يسمي اليهم ، ويؤخذ عنهم ، ويعتز بأرائهم المزيده بالعمل بعد العلم .

وعلى هذا فابو القاسم فاق اهل عصره في طريقته العملية ، فبرز في علوم ومعارف أوجدتها من تجاربه في التوليد والاختراع ثم الابتكار ، ومن ذلك :

1 - عانى صناعة الكيمياء ، وقام بتجارب وفحوص مختلفة ، واهتدى الى حقائق ، لم تكن معروفة عند الاندلسيين ، منها : انه استنبط صناعة الزجاج من نوع من الحجارة ، وبدا يسر للاندلسيين صناعته من مادة بخسة الثمن ، سهلة التناول ، فانتشرت صناعته في الاندلس ، وتفوقوا فيها .

2 - عانى علم الفلك والتنجيم ، راقب النجوم والكواكب في افلاكها ومداراتها ، وصنع الآلات التي تساعد على الرصد . وما صنعه الآلة الكروية « بلات الحلق » ورنمها الى الامير محمد بن عبد

(1) اصل ابن فرناس بثلاثة امراء - وكان مقرباً اليهم وهم على التوالي :

1 - الحكم بن هشام 188 - 206 هـ = 803 - 821 م

2 - عبد الرحمن بن الحكم 206 - 238 هـ = 821 - 852 م

3 - محمد بن عبد الرحمن 238 - 273 هـ = 852 - 886 م

الرحمن الاموي ، وكتب عليها ابياتا من نظمه تناسب الآلة ، وما تقوم به من عمل :

قد تم ما حملتني من آلة
اهيا الفلاسفة الجهابذ دوني

لو كان بطليموس الهم صنعة
لم يشتغل بجداول القانسون

فاذا راته الشمس في آفاقها
بعثت اليه بنورها المحزون

ومنازل القمر التي حجبت معا
دون الميون بكل طالع حين

يبدون فيها بالنهار - كما بدت
في الليل في ظلماتهن الجورن

3 - عمل الميقاتة لمعرفة الاوقات - وهي تقوم مقام الساعة في يومنا هذا ، ورفعها الى الامير محمد بن عبد الرحمن ، وكتب عليها من نظمه :

الا انسي للدين . خبير اداة
اذا غاب عنكم وقت كل صلاة

ولم تر شمس بالنهار ، ولم تنر
كواكب ليل ، حالك الفللمات

بيمن امام المسلمين « محمد »
تجلت عن الاوقات كل صلاة

4 - اتخذ في داره هيئة السماء ، وصور فيها الشمس والقمر ، والكواكب ومداراتها ، والغيوم والرعد والبرق ، فكان من اعاجيب الصنعة والابتكار .
5 - انه اول من طار وحلق في الهواء - كما تطير الطيور وهذا من الاختراعات المدهشة التي قام بها « حكيم الاندلس » .

قام بمدة تجارب تمهيدية ، درس بها ثقل الاجسام ، ومقاومة الهواء لها ، وتأثير ضغط الهواء

عليها اذا ما طارت في الفضاء ، وكان له خير مسامد على هذا تفوقه في العلوم الطبيعية والرياضية والكيمياء ، فاطلع على خواص الاجسام ، واجتمع لديه من المعلومات ، ما حمله على ان يجرب الطيران بنفسه .

كسا نفسه بريش اتخذه من سرقبي الحرير (1) ، اثنتاه وقوته ، وهو يتناسب مع ثقل جسمه ، وصنع له جناحين - من الحرير ايضا - يحملان جسمه اذا ما حركهما في الفضاء ، وبعد ان تم له كل ما يحتاج اليه هذا العمل الخطير ، وتأكد ان باستطاعته اذا ما حرك الجناحين ، فانهما سيحملانه ويطيرون في الفضاء ، - كما تطير الطيور - ويسهل عليه التنقل بهما اينما شاء .

اعلن للناس انه يريد ان يطير في الجو ، وان طيرانه سيكون من الرصافة - ظاهر مدينة قرطبة - فاجتمع الناس فيها ليشاهدوا البطل يتهادى في سماء قرطبة .

صعد ابو القاسم فوق مرتفع ، وحرك جناحيه ، وقلز في الجو ، وطار في الفضاء مسافة بعيدة عن الحبل الذي وقف فوقه ، والناس ينظرون اليه بدهشة واعجاب ، يهللون له ، وشامروهم يقول :

يطم (2) على المنقاء في طيرانها
اذا ما كسا جسمانه ربح قشقم

ولما هم بالنزول الى الارض ، تاذى في ظهره ، وفاته ان الطائر انما يقع على زمكه (ذيله) ، ولم يكن يعلم موقع الذنب في الجسم انما هبوطه الى الارض ، فاصيب بما اصيب من اذى .

هذه اول عملية جريئة يقوم بها حكيم اندلسي ، يجرب الطيران بنفسه ، وينجح بعمله الى حد ما ، وهذا النجاح الذي سجله حكيم الاندلس ، دفع الناس

(1) شقق الحرير الابيض والواحدة سرقبي

(2) طم : فلا ، غلب ، والقشقم : المسن من النور .

بالإقدام على محاولة الطيران ، فكان عمله نواة طيبة ،
نمت وازدهرت ثم انثرت .

وصف مجالس الانس والطرب ، وما فى تصورهم من
جنات وميول ، وزروع ومقام كريم ، وملاعب
وكواهب ، ومصاندهم ومطاردهم - وكان يرافقهم بها .

رافق الامير محمد بن عبد الرحمن ، لما سار الى
اخمد ثورة اهل « طليطلة » مع حلفائهم النصارى
سنة 240 هـ (854 م) فوقع فيهم الامير ، واخمد
الثورة بمنف وشدة وشئت الثائرين . فقال ابن
فرناس يصف هذه الواقعة :

ومؤتلف الاصوات مختلف الزحف
لهوم الغلا ، جبل القبال ملتف

اذا اومضت فيه السوارم خلتها
بروقا تزوى فى القمام وتستخفى

كان ذرى الاملام فى ميلانها
قراير فى يم ، مجزن من القذف

بكى جبلا وادي سليط فاصولا
على النفر العبدان ، والمعصبة الغلف

يقول ابن بوليس لموسى - وقد اتى -
ارى الموت قدامى وتحتى ومن خلفى

قتلت لهم الفا والفا ومثلها
والفا والفا بعد الف الى الف

سوى من طواه النهر فى مستحله
فأفرق فيه ، او تهدهد فى جرف

لقد نعمت فيه غزاة نسورنا
وسمعت الدقات قصفا على نصف

ووصف ما آلت اليه طليطلة من الدمار
والتخريب ، وهدم الامير قنظرتها الشهيرة فقال :

(1) كان اماما فى اللغة والادب ، وخطه يضرب به المثل فى الجودة ، لا يكاد يفرق بينه وبين خط « ابن
مقله » سافر فى طلب العلم ، واخذ من مدة شيوخ وخالط الامراب فى بلاد ربيعة ومضر ،
وصنف كتابه المشهور « الصحاح » فى اللغة واستقر فى نيسابور على التدريس والتأليف ، وتعليم
الخط ، وكتابة الصحاف ، وله عدة كتب .

نكر فى الطيران ، واعتقد ان فى مقدور الانسان ان يطير اذا ما اتخذ له جناحين ، كجناحي
الطير ، ولكنه لم يتم بدراسات تمهيدية يجرب بها ما افترضه - كما فعل حكيم الاندلس - فانه
صعد سطح الجامع القديم فى نيسابور وقال : ايها الناس انى عملت فى الدنيا ما لم اسبق اليه ،
فساعمل للاخرة امرا لم اسبق اليه ، وضم الى جنبه مصرايى باب ، وثابطهما بحبل ، وطسار فى
الفضاء ، - ولم يكن موثقا بعمله ، فان مصرايى الباب لم يحملانه فى الفضاء ، بل سقطا به على
الارض ومات . فكان عمله هذا دراسة سطحية لئلا يكبر .

الجميلة التي فنتت الكثير من شعرائها ، فابدموا في وصفها .

ومما قاله في صفة روضة :

ترى وردها والاقحوان كأنه
بها شفة ليماء ضاحكها نضر

وقد ابدع في وصف اشجار النخيل الباسقات
- الاشجار المباركة التي رافقت العربي اينما حل
واستقر - نقلوها الى الاندلس وزينوا بها حدائقهم
وبساتينهم :

حنايا كأمثال الالهة ركبنت

على عمد ، تمتد في جوهر البدر

كان من الياقوت قبست رؤوسها
على كل مسنون مقيض من السدر

ترى الباسقات الناشرات فروعا
موائس فيها ، من مداولة الوقر

كان صناعا صاغ بين فصولها
من الذهب البادي، عراجين من نخل

نشت لؤلؤا ، لم استحالت زمردا
بؤول الى العقيان قبل جنى البسر

ووصف الصحراء ووحشتها ، وترامى اطرافها
فقال :

موسومة بالبعد ، تحسب سهلا
لقى السماء بحولها اطنابا

فكانها دار تقاذف صحنها
لم يجعل الباني لها ابوابا

ومن جميل قوله في وصف السراب :

يفلقن لجة آله ، فامامها
حاد ، وآخر خلفها لم يلحق

فكان ذا موسى ، وذلك بالره
فرهون ، الا انه لم يفرق

ومن تشبيهاته الجميلة ما قاله في وصف كوز :

ومعجم لم يبق في جثمانه
الا حشاشة مهجة لم تزهرق

اضحت طليطلة معطلة
من انها ، في قبضة الصقر

تركت بلا اهل تؤهلها
مهجورة الاكشاف ، كالتبر

ما كان يبقى الله قنطرة
نصبت لحمل كتاب الكفر

وله قصيدة يهنيء بها الامير محمد بمودته من
طليطلة ، موافقا عيد الاضحى المبارك اولها :

ان القفول الذي اودى بعيدين الخ . .

ولما جدد الامير محمد قصور الرصافة ، التي كان
قد شيدها جده « صقر قريش » عبد الرحمن
الداخل ، وزينها بجميل الزخارف والكتابات وجعلها
من اجمل القصور بهاء ورونقا ، فقال ابن فرانس فيها:

كان تصور الارض بعد تمامه
كثير له اخفى شخوصا من الدر

فاعجب من اقتائها الفرر التي
يقيم بهن البرد في دعوة الحر

وتنتشر الابصار منها الى مدى
التنزه بالاطيار والوحش والزهر

كان الذي يخفي الحديث بنجوها
على اخفض الاصوات يشدو على وتر

وكما كان يتحف الامراء بالالات الدقيقة الصنع،
كان يتحفهم بهدايا طريفة نفيسة ، نظم اربعة ابيات،
وكتبها بالذهب على تفاعلة ، ورفعها الى الامير محمد،
اولها :

محمد اكرم مستخلف
من خلفاء الله في الارض

فسر الامير ، وامر ان يفنى بها ، وكانا ابا
القاسم من كل بيت بالف دينار ، وقال : لو زادنا
لردنساء .

كان ابو القاسم مرهف الحس ، واسع الخيال،
يستهو به جمال الطبيعة ، وسحرها الخلاب ، دقيق
الوصف ، وكيف لا يصف مباحج الاندلس ، ومناظرها

حنيت على كشحيه من برحائه
مضان : فهو لموتق لم يطلق

حلت عمامة راسه فتضومت
منا مفارقه ، بمثل الرنبق

وله شعر رقيق يستهوي القلوب ، كقوله :

فبتنا وانواع النسيم ابتذالنا
ولا غير عينيها ، وعيني كالي

الى ان بدا وجه الصباح كانه
جبين فتاة ، لاح بين حجال

وقوله متفزلا :

واحور ما يعني الميون من الفسق
له كذب في الجدد ، احلى من الصدق

وللحسن في خديه شمس مقيمة
وبدر كمال لا يحور الى محق

وما الميش الامتة الهجر والهوى
باحور ، ما يبقى هواه ، وما يبقى

- 4 -

كان ابن فرناس موسيقيا مبدعا ، ينظم الشعر ،
ويضع اللحن ، ويفنني به ، ويوقع على الصوت ،
واشتهر بما وضعه من قطع جميلة كانت من نظمه
وتوقيعه ، وكان أمراء قرطبة يزيتون مجالسهم
بانشاده وعزفه ، وأكثر الأمراء حبا له هو الأمير محمد
ابن عبد الرحمن ، فناه يوما صوتا من نظمه وتلحينه
أوله :

الجهل ليل ليس فيه نور
والعلم فجر نوره مشهور

فاجزل له العطساء .

ومما يدلنا على سرعة بديته في نظم الشعر ،
ورضع الصوت المناسب وحسن توقيعه على العود ،
ما رواه المرزباني (في طبقات اللغويين والنحويين)
نقال :

(1) مدينة غربي الاندلس

كان محمود بن ابي جميل غلاما جوادا - وكان
ماملا في اخريات ايام الامير عبد الرحمن بن الحكم
- فعمل قبة ادم - بلغت النفقة فيها ونى وطالها
خمسمائة دينار - فأكملت غريبها على وادي لكة (1) ،
وصنع ضيفا ، جمع له اصناف الكورة ، ووافق ذلك
اطلاع « عبد الملك بن جهور بن يوسف بن بخت »
ضياحه « بشدونة » فاستجلبه محمود مع بياض الكورة ،
فشهد وشهدوا ، فلما تقضى طعامهم ، وصاروا الى
المؤانسة - ومندهم احد بني زرياب - طلع عليهم
عباس بن فرناس زائرا لمحمود ، فقام محمود اليه
والتزمه ، وسر جميعهم بوروده ، ثم عرض عليه
الطعام ، فطمع ، ثم صار الى المؤانسة ، ودفع ابن
زرياب يغني :

ولو لم يشقني الظامنون لشاقتني
حمام تدامت في الديار وقوع

تدامين فاستبكيين من كان ذا هوى
نوائح ما تجري لهن دموع

فاستمدادوا الصوت اصجابا ، فاعاده .

فلما تقضى فناه ابن زرياب ، مد العباس يده الى
العود ، فأخذه وغنى البيتين ، ووصلهما من عنده
بديهة فقال :

شدت بمحمود يدا حين خانها
زمان لاسباب الرجاء قطوع

بنى - لسامي الجود والمجد - قبة
اليها جميع الاجودين ركوع

وكان محمود جوادا ، فقال له : يا ابا القاسم ،
امر ما يحضرني من مالي القبة وهي لك - بما فيها من
كسوتي هذه - وتكون في ضياقتك بقية يومنا ،
ودعا اليه بكسوة فلبسها ، ودفع اليه كسوته ، وكانوا
يومهم كذلك ..

هذه القصة الطريفة عن الفنان ابن فرناس ،
تطلعنا على ما كان عليه من النظم الذي يناسب

المقام ، وانه كان يضع له الصوت ، ويفني بما يجب
البرزين في الفناء ، بل يفوقهم بذلك

- 5 -

هذا التفوق في الموسيقى والإيقاع ، ساعده على
حل اصطلاحات كتاب العروض للخليل بن احمد
الفراهيدي (100 - 170 هـ = 718 - 786 م) احد
مفاخر العرب والإسلام .

ذكر المؤرخون : لما ادخل الى الاندلس كتاب
العروض ، للخليل بن احمد الفراهيدي وصار الى
الامير عبد الرحمن بن الحكم ، عرضه على علماء قرطبة
وادبائها ليوضحوه له ، فمعجزوا عن ذلك ، وصار
الكتاب مما يتلهم به في قصر الامير ، حتى ان بعض
جوارى القصر كان يقول لبعض : صبر الله عقلك ،
كعقل الذي ملا كتابه من : مما ومما . فبلغ الخبر ابا
القاسم بن فرناس ، فتقدم الى الامير ، وطلب اليه
اخراج الكتاب اليه ، ففعل ، ولما قراه ابن فرناس
وتدبره ، علم انه في علم العروض ، العلم الذي
ابتكره الفراهيدي ، وضبط به بحور الشعر العربي ،
فكف ابو القاسم فوامضه ، وشرحه لقومه ، فسئل
عليهم دراسة هذا الفن الجميل والاستفادة منه .

فنولا برامته في الموسيقى والنغم ، وشعوره
المرهف ، وتبصره بالفريب ، واطلاعه الواسع على
دقائق هذا الفن - لما سهل عليه حل رموز الكتاب ،
وتبسيطه .

- 6 -

فحكيم الاندلس ابن فرناس ، كان من عباقرة
عصره في العلوم ، والمصارف الدقيقة ، والآداب
الرفيعة ، والفنون الجميلة .

عاني صناعة الطب ، فكان من اطباء زمانه ،
درس المنطق والفلسفة وعلوم الحكمة وصار من اعلامها ،
عكف على التجارب في الكيمياء والعلوم الطبيعية
واهتدى الى امور خفيت على غيره ، متضلعا بعلم
الفلك والنجوم والرياضيات ، وجاء بما ادهش
قومه - وكان مع هذا كله - اديبا شاعرا نحويا لغويا ،
يتقن وضع الالحن ، ويحسن الإيقاع على آلات الطرب ،
ويطير في الفضاء ، محالقا في جو الاندلس ، ذلك
لانه كان بعمله وفنه ، فوق ما عليه قومه ، فخلق في
العلم والعمل .

رحم الله ابا القاسم « حكيم الاندلس » فقد كان
من اعلام نوابغ الاسلام ، يفاخرون بعلمه وادبه وفنه .

اهم المصادر التي عولنا عليها في هذا البحث :

- بغية الملتبس - للضبي
- المغرب في حلى المغرب - نشره شوقي ضيف .
- جدوة المقتبس - للحميدي .
- التشبيهات من اشعار اهل الاندلس - الكتاني .
- نفع الطيب - المقري .
- الحلل السندسية - ارسلان
- معجم الادباء - ياقوت
- يتيمة الدهر - للشمالي .
- طبقات اللغويين والنحويين - الزبيدي .
- وفيات الاميان - ابن خلكان
- بغية الوصاة - السيوطي
- شذرات الذهب - لابن العماد
- مقال في العدد 22 من مجلة العربي للاستاذ عثمان .
- وغیرها من المصادر ..

أعلام اللغة

أحمد فارس الشدياق
الأستاذ محمد صديق بيهم

الى قرية الحدث على مقربة من بيروت سنة 1809
فترعرع فيها ، وتعلم في مدرسة عين ورقة . ولما
مات والده انكب على المطالعة ، واحترف مهنة نسخ
الكتب .

ولما مات اخوه بطرس الذي كان حبيس البطريرك
الماروني في دير قنوبين خاف فارس على نفسه فعاف
وطنه مفاضيا ، وسافر الى القاهرة ليكون استاذ
اللغة العربية عند رجال البعثات الاميركيين . وهناك
انكب على دراسة اللغة العربية وعلى الاتصال بالائمة
المصريين والعلماء ، فبلغ ابعاد اعماقها . ولذلك عهد
اليه محمد علي الكبير والي مصر بتحرير جريدة
الحكومة : « الوقائع المصرية » .

وفي سنة 1824 ذهب الى مالطة بناء على
طلب المرسلين الاميركان ، ولبت في تلك الجزيرة
اربع عشرة سنة يعلم في مدرسة هؤلاء ، ويصحح
مطبوعات مطبعتهم .

وفي سنة 1848 طلبته وزارة الخارجية
الانكليزية من حاكم مالطة ليعاون الدكتور «لي» على
ترجمة التوراة ، فلبى طلبها ومكث في لندن عشر
سنوات تعرف خلالها باكبر علماء أوروبا وادبائها .
وهناك ألف كتبه « الواسطة » و«كشف المخيا»
و «الفارياق» الذي طبعه في باريس سنة 1855 .

وفي باريس ألف واصدر كتبا اخرى ابرزها
«سر الليالي» الذي كشف به الفطاء عن مظمة اللغة

منذ بداية القرن التاسع عشر برزت في كل من
مدينة بيروت ، التي كانت مركزا لولاية تحمل اسمها،
ولبنان في مهديه الاقطامي والتصريفية الممتازة، برزت
نهضة هارمة شملت النواحي الادبية والاجتماعية
والسياسية . وكان يرجع مصدرها الى اختلاط هذا
الشعر والجبال المشرفة عليه بأوروبا وذلك بانتقال
بعض رجال الدين المسيحي الى عواصم الغرب ،
وتدفق الرسائل التبشيرية الى هذين البلدين ،
وتنافسها في انشاء المدارس والكليات والطابع ،
بالاضافة الى ما تخلل ذلك من قيام الشركات الاجنبية
بالمشاريع العمرانية والاقتصادية ، وفي اسفار كان
يقوم بها تجار بيروت الى الممالك الاوروبية وغيرها في
سبيل التبادل التجاري .

وفي اواخر القرن المذكور كان شعار النهضة
اهتماما باللغة العربية وآدابها ، وقد حمل لواءهما
ادباء من رجال الدين والدنيا نظموا الشعر وكتبوا
المقامات وانشأوا الصحف والمدارس ليس في سوريا
فحسب ، وانما في غيرها من البلاد المجاورة ،
وأوروبا . وعلى قول جاحظ لبنان المعاصر المرحوم
مارون عبود احمد فارس الشدياق كان الرجل
الاول في هذا البعث الاجتماعي ، وحامل لواء اللغة
العربية .

— * —

ولد فارس الشدياق في قرية مشقوت ببلبنان
سنة 1804 ، ولاحوال سياسية انتقل والده منصور

وعلى رأسهم مفتي البلدة ، والاعيان والادباء ، وكانت
الرايات والاعلام تمشي امام الجنائز ، ومشايخ
الطرق يمشون وراءها يهللون ويكبرون .

وبعد الصلاة عليه في الجامع العمري الكبير ،
وسماع المراثي من نظم ونثر (على ما ذكرت جريدة
لسان الحال في اليوم التالي نقل جثمانه الى قرية
الحدث ، ولكنه لم يدفن فيها ، وانما دفن على مقربة
منها في محلة الحازمية على جانب الطريق بين بيروت
ودمشق حيث شيدت الدولة له ضريحا مرموقا على
نسق مقامات الباشوات والحكام .

— * —

في نهاية عام 1936 اجتمع في بيروت جمهرة
من كبار الادباء والصحفيين والاعيان، وقرروا الاحتفال
بيوبيل الشدياق بمناسبة مرور خمسين عاما على
وفاته ، واختاروا لجنة ادارية منهم تتولى اعداد
مهرجان كبير لاحياء ذكراه، ولاءدة طبع آثاره .
وقد شرفني المجتمعون بانتخابي رئيسا لهذه اللجنة ،
ولكن الاسباب التي حالت دون دفن الشدياق في
القرية التي ولد فيها ، حالت هذه المرة ايضا دون
قيام هذه اللجنة بما عهد اليها .

ونحن نترك الكلام هنا الى اديب لبنان الكبير
مارون عبود . فهو قد ختم كتابه « صقر لبنان »
الصادر سنة 1950 بفصل اطلق عليه اسم « صرخة
في ود » : اورد فيه ما اعترض الاحتفال الخمسيني
للشدياق من ملاسبات وعقبات . وقال : « عندما
ارسانا الصرخة تلو الصرخة لم نحسب انها جميعا
ستذهب في واد . فما اصدرنا بضع مقالات ، في
نهاية عام 1936 نذكر فيها العالم العربي باديب النهضة
الحديثة ، وواضع حجر الزاوية في بنيانها العلامة
الاكبر احمد فارس الشدياق حتى اهاب بنا صوت من
بيروت : ان انزل العاصمة ، فهبطنا اليها شاكرين
للاستاذ محمد جميل ييهم دموته الى شربنا فيها
الشاي والقهوة ، واكلنا من الحلوى اقراصا مختلفة .

كنا اربعين ، ولكن غير الاربعين الخالدين ،
فانتخبنا منا اثني عشر رسولا ... حملناهم الدموة
للشدياق ، وارسلناهم كالخراف ... كانت همتنا
عظيمة يوم بداننا ، وتلك مادتنا ، نار هشيم ، ثم
تنظيفه . فما ذاقنا الدموة حتى انبعثت الهمم ،
واتانا من القاهرة نبا الدكتور فيليب الشدياق (ابن
هم المرحوم) يتبرع بمائة جنيه مصري لعمل تمثال

العربية . وصادف ان جاء باريس وقتل احمد باشا
باي تونس ، فمدحه الشدياق بقصيدة كان اولها
« زارت سعاد » ، ثم بعث بها اليه بعد عودة الباي الى
بلادها فاعجب هذا بها ، وارسل يستقدمه الى تونس
على سفينة بخارية ليبحر الشدياق عليها هو وعائلته .

وفي تونس هجر الباي الشدياق بنعمه ، وقلده
اسمى المناصب ، فضلا عن مديرية المعارف عهد اليه
برئاسة تحرير جريدة الرائد التونسي . وفي غمرة
هذه النعم اعلن فارس الشدياق اسلامه ، وازاد الى
اسمه احمدا ، وتكنى بابي العباس .

وحينئذ ، وقد ذاع صيته في الشرق والغرب ،
استدماه السلطان عبد المجيد العثماني بواسطة الباي .
ولما جاء دار السعادة « اسطامبول » رحب به
السلطان ، وهمد اليه بادارة المطبعة السلطانية طوال
عدة سنوات . وفي سنة 1861 انشا الشدياق جريدة
الجواب ، فكانت تنطق بلسان الشرق ، ومرجما
للصحف الاوروبية في القضايا الشرقية التي كان
يطلق عليها « المسألة الشرقية » . وكانت هذه
الجريدة تحمل لواء العرب والعربية الامر الذي افضى
الى اسكانها سنة 1884 .

وفي 1886 زار احمد الشدياق القاهرة ،
وهو شيخ ، فاكرمه الخيديوي توفيق باشا ، ونوه
بخدماته للشرق افضل تنويه ، ولكنه مع ذلك ظل
يحن الى العاصمة العثمانية فعاد اليها ، وقضى
نحبها فيها سنة 1887 . وقد احتفل بمآتمه احسن
احتفال ، واشترك فيه ممثل السلطان ، وصدرت
ارادة سنية بدفنه في تربة السلطان محمود ، بينما
رثته صحف العالم على اختلاف لغاتها ، ونقل البرق
نعيه الى العواصم الاخرى . وقالت عنه جريدة
الاجيبيان غازيت ما يلي : « ضع الكتبة الانجليز
سكيت وامرسون وداور دروث ووايكنف وبلويز في
شخصية واحدة فحينئذ يمكنك ان تتصور جيدا عظمة
احمد فارس الشدياق . ولو ولد الشدياق في أوروبا
لدفن مع نخبة العظماء ، ولتصب له التماثيل في اكثر
مدن بلاده . »

ولكن الشدياق (على ما جاء في دائرة معارف
البيستاني) كان يريد ان لا يدفن في غير مسقط رأسه
ولذلك فان ولده سليمان التمس الاذن بان يدفن في
قرية الحدث عملا بوصية والده . وكان يوم نقل
جثمانه الى لبنان من اعظم ايامه ، كما كان يوم استقبال
جثمانه في بيروت يوما مشهودا اشترك فيه العلماء

للفقيد ، وتوالت جلسات اللجنة المختارة حتى خطر
ببإلها أن تفرع باب الحكومة ، فمئة فيليب شجعتها
... اما كرم الحكومة فكان حائما ... واليك ما
كتبته جريدة صوت الاحرار الخطيرة على اثر تلك
المقابلة تحت هذا العنوان الضخم « الجمهورية
البنانية تقدر ثوابها » .. « اوفدت لجنة تكريم امام
الفة العربية وحجتها في القرن التاسع عشر الماسوف
عليه احمد فارس الشدياق اربعة من اعضائها :

السادة محمد جميل بيهم رئيسها ، والشيخ يوسف

زكريا ، وكرم ملحم كرم ، ويوسف يزبك فقابلوا
فخامة رئيس الجمهورية اللبنانية الاستاذ اميل ادة
وطلبوا اليه التلطف بقبول جمل المهرجان تحت رعاية
فخامته . وقد استقبل اللبناني الاول وفد اللجنة
بحفاوة وقال : « انه شخصيا يعطف على مشرومها
ويقدره حق قدره ، ولكنه يطلب الى الوفد ان يجتمع
بمعالي وزير التربية الوطنية ويتفق معه على تقرير
الامر ، عملا بنصوص الدستور ... وذهب الوفد الى
معالي الاستاذ حبيب ابي شهلا ، فلقي من وزير
التربية الوطنية كل عطف وتشجيع ، وقال : انه
مستعد لتسهيل مهمة اللجنة بكل ما لديه من الوسائل
المادية والمعنوية ، وقد تلطف وشكر اللجنة باسم
الحكومة اللبنانية على اهتمامها بتكريم نابغة لبناني
من نوايخ الامة العربية ، ووعد بقبول رعاية المهرجان .

وهكذا ارتخت همة لجنة الشدياق ، اذ علم
الاعضاء الكرام ، والرئيس الهمام انهم ينفخون في
رماد . »

وهنا امرت المرحوم مارون عبود عن أسفه على ما
اترضس يوبيل الشدياق الخمسيني من عقبات ،
ولكنه قال : « فلا بأس ان تركنا التمثال للذرية فلعلها
تكون خيرا منا فلجنة تمثال بودليس نامت زهاء ربيع
قرن » .

اما وقد مضى 35 عاما على موهد يوبيل
الشدياق الخمسيني توفي خلالها الدامي الاول لهذا
اليوبيل ، واشرفت على اللحاق به حين ان احدا من
الذرية لم يفكر في الاحتفال بذكرى الشدياق فاني
احببت ان اذكر العالم العربي بمجلة «اللسان العربي»
المحترمة، بالرجل الفد الذي خدم هذا اللسان خدمات
لم يقم فيها احد سواه في عصره ، ولعل الذكرى تنفع
المؤمنين .

وقد بسط لمعالي الوزير منهاج اللجنة لتكريم
الشدياق ، ومنه اعادة طبع بعض مؤلفاته ، واختيار
مختارات منها ، ثم اقامة تمثال له ، وترميم ضريحه
في الحازمية ، وجعل مدة المهرجان اسبوعا كاملا
يشترك فيه المستشرقون ، ووفود الاقطار العربية
وشعراؤها وكتابها . ولم يفسح معالي الوزير المجال

تاريخ جامعة الدول العربية

الشيخ طه الوحي « بيروت »

هذه المرة لم تعتمد على موظفيها العاديين في البلاد العربية امثال السير هنري مكماهون ، وانما كلفت وزير خارجيتها بالذات ، المستر انطوني ايدن ، باطلاق تصريح سياسي قال فيه :

« لقد خطا العالم العربي خطوات واسعة في طريق الرقي، وهو يطمع الآن الى تحقيق نوع من الوحدة يجعل منه عالما متماسكا، ويرجو ان تسامده بريطانيا العظمى في بلوغ هذا الهدف . ويسرني ان اعلن باسم حكومة صاحب الجلالة عن ترحيب بريطانيا بهذه الخطوة وعن استعدادها لمساعدة القائمين بها حالما تتوفر لديها الادلة على تأييد الرأي العام العربي لها » .

غير انه بالرغم من المكانة الرسمية التي يتمتع بها المستر ايدن في حكومته ، فان تصريحه المثير لم يحدث اثره المطلوب في نفوس القادة العرب . لان هؤلاء كانوا ما يزالون غير مقتنعين بقوة الحلفاء ولا بسلامة موقفهم العسكري ، من جهة ، ومن جهة اخرى ، فان العرب على مختلف اوساطهم كانوا غير مؤمنين بصديق نوايا الانكليز الذي سبق لهم ، اثناء الحرب العالمية الاولى ، ان تنكروا لوعودهم وعهودهم التي اسرفوا في اغداقها على الشريف حسين ، امير مكة ، حين استدرجوه للثورة على دولة الخلافة العثمانية الاسلامية . فلما انتصروا على اعدائهم ، لم يتورعوا عن اعتقاله في جزيرة قبرص ، واحتلال الشرق العربي وتقسيم بلاده فيما بينهم وبين حلفائهم الفرنسيين على ما هو معروف ، ولا داهي لتكراره في هذه المناسبة .

كان عام 1941 بالنسبة للحلفاء مشحونا بالمفاجآت والمتاعب . وفي اثنائه احرزت قوات الالمان انتصارات عسكرية ساحقة على اكثر الجبهات الحربية سواء في اوربا حيث سقطت فرنسا صريعة تحت اقدام الغزاة وتفشت قوات المحور بقيادة رومل على طول شمال افريقيا حتى الحدود المصرية، وبدا للناس في كل مكان ان هتلر سيصبح سيد العالم بلا منازع .

وقد ادى هذا الوضع العالمي الى تحريك المشاعر القومية في بلاد الشرق العربي فقامت الاوساط الوطنية المتحمسة باثارة الجماهير للانتفاض على السلطات الحليفة باساليب مختلفة ، بنفت احيانا حد الحركات المسلحة ، كما حدث مثلا في العراق حيث اعلن الجيش العراقي الحرب بصورة رسمية على القوات البريطانية التي كانت ترابط في البلاد ، واستولى على السلطة بعد ان اضطر الوصي على العرش وحكومته للهرب من العاصمة بغداد والاعتصام في البصرة تحت حماية القوات الانجليزية التي كانت صارتها البحرية قريبة منها .

وعلى الرغم من ان الجيوش الحليفة كانت ولا تزال قادرة على اخماد كل حركة محلية تقوم ضدها، بل هي اخمدتها بالفعل ، بالرغم من ذلك فان الحكومة البريطانية وجدت ان من مصلحتها يومئذ معالجة المواطنين الوطنية مند العرب بالتي هي احسن ، فلجأت الى نفس الاساليب التي سبق لها ان اتمتها في الحرب العالمية الاولى (1914 - 1918) بيد انها في

وكان تصريح المستر انطوني ايدن الاول بتاريخ 29 ايار 1941 . وفي 24 شباط سنة 1943 جاء ايدن بتصريح جديد ، كرر فيه ما كان قد عرضة في السابق من بلبل خدمات بريطانية لمساعدة العرب على تحقيق امانيهم في الاتحاد والتحرر ، وذلك في معرض رده على سؤال وجه اليه من قبل احد اعضاء مجلس العموم البريطاني .

ويبدو ان الظروف في سنة 1943 كانت ، بالنسبة للحلفاء افضل منها في سنة 1941 . نظرا لتحول الموقف العسكري بوجه عام الى صالحهم ، فاستقبل ساسة العرب التصريح الانجليزي الثاني بروح ايجابية ، رغبة منهم في الافادة من هذا العرض البريطاني ، الذي بدا لهم وكأنه فرصة ذهبية ، لا يجوز تفويتها على امتهم ولاسيما وان الحلفاء في ذلك الحين ، ارادوا تبديد الشكوك فيما يقولونه ، فانتهزوا فرصة انسحاب قوات المحور وفي جملتها قوات حكومة فيشي التابعة لهم ، من منطقة الشرق الاوسط ، فأعلن ديفول ، رئيس الحكومة الفرنسية المؤقتة اعترافه باستقلال سورية ولبنان ، كما اعلن الانجليز مزعمهم على الاعتراف باستقلال امارة شرق الاردن فيما بعد .

وبالفعل كان اول رد فعل لتجاوب العرب مع المبادرة البريطانية جاء من قبل الامير عبد الله بن الحسين حاكم شرق الاردن الذي كان اول من اعرب عن استجابته لتصريح ايدن ، معلنا بان العرب سيجتمعون حالا ، لدراسة التصريح المذكور ، والتصرف على ضوء ما تضمنه من عروض ووعود .

وكان الامير عبد الله يرى ان الظرف اصبح ملائما للعمل على تحقيق حلمه في بئث مملكة له تضم البلاد السورية في جميع اجزائها التي اقتسمها الحلفاء فيما بينهم بعد الاحتلال الذي فرضوه عليها في اعقاب الحرب العالمية الاولى . فوجه مذكرة الى الحكومة الانجليزية يشاؤها فيها الغاء الانتداب من شرق الاردن اسوة بالاقطار السورية الاخرى ليتمكن من السعي مع تلك الاقطار للوحدة تمهيدا للملك الذي يطمح به . وايد الامير مذكرته هذه بان ارسل معها صورة عن قرار اتخذه مجلس الوزراء الاردني بتاريخ اول تموز سنة 1941 جاء فيه :

... « ان التصريح البريطاني الاخير على لسان المستر ايدن اولا ، ولسان السير مايلز لمبسون

ثانيا ، وكذلك تصريح فرنسا الحرة على لسان الجنرال كاترو . قد قوبلا بالاعتباط والشكر من حكومة سموكم واتاحا لها ، على ضوءها ان تدرس الموقف السياسي الحاضر في البلاد التي تتألف من سورية ولبنان وشرق الاردن وفلسطين ، وتمثل المجموعة السورية المراتية التاريخية ، وانها لترحب اجمل ترحيب بهذين التصريحين وتسجلهما وتعتبرهما اعترافا بجدارة البلاد السورية بالاستقلال والوحدة ، ودليلا على تقدير بريطانيا العظمى وفرنسا الحرة للمنافع المشتركة التي يمكن ان يضمناها استقلال البلاد العربية السورية ووحدتها للدولتين الحليفتين وللرب انفسهم سواء في ايام السلم او ايام الحرب . وبناء على هذا الرأي ترى (اي الحكومة الاردنية) ان تفضلوا وتسمحوا لها بالاتصال بالحكومات المشار اليها والتعاون واياها على العمل لتحقيق الغايات الالفة وجمع الكلمة وتوحيد الرأي العام ، وانها تستند في اقتراحها هذا الى الامور الآتية :

تضمن تصريح المستر ايدن ان الحكومة البريطانية عظيمة العطف على قضية الاستقلال السوري وانها مستعدة لتأييد السعي الذي يبذله فريق من زعماء العرب لايجاد نوع من الوحدة العربية .. وان ذلك ليعد اكبر تأييد من الحكومة البريطانية واعظم عطف منها على القضية العربية .

ثم تضمن قرار الحكومة الاردنية ، النقاط التي رواها مبررة لما جاء فيه .

على ان الحكومة البريطانية استقبلت مذكرة الامير عبد الله وقرار حكومته بفتور ملحوظ وكلفت معتمدا في الاردن بالجواب عليه في مذكرة جاء فيها :

« .. ان فخامة المندوب السامي (بفلسطين) قد احال الامر الى حكومة جلالتة .. واومر الي بان ابلى سموكم رد حكومته بالنص التالي :

« ان المثل الاعلى للوحدة العربية والاستقلال هو مستحوذ على عطف حكومة جلالتة التام ، على ان القضية يرجع امرها الى تبصر العرب انفسهم ، عندما يكون الميدان اكثر جلاء مما هو عليه في الوقت الحاضر . اما فيما يتعلق بالقرار الموجود قيد النظر ، فان حكومة جلالتة تلزم رايها التاكيد ان كل تقارب من الحكومة السورية او من اية حكومة اخرى من الحكومات ، كالتى تضمها حكومة شرق الاردن

نصب عينها ينبغي ارجاؤه ريثما تفدو الحالة اكثر استقرارا » .

ولم تكن استجابة الامير عبد الله هي الوحيدة التي قوبل بها تصريح ايدن من قبل العرب ، بل ان نوري السعيد قام بدوره بتقديم مذكرة عرفت يومها « بالكتاب الازرق » الى المستر كيزي وزير الدولة البريطانية في الشرق الاوسط ، وقد اعربت هذه المذكرة عن ترحيب العراق بالبادرة الانجليزية التي وردت على لسان المستر ايدن . .

بيان مصطفى النحاس باشا

ان البيانات التي اصدرها المسؤولون في الاردن والعراق لم تترك اي صدى في الدوائر العربية الاخرى لان الوضع السياسي في كلتا الدولتين المذكورتين لم يكن يحظى بتأييد هذه الدوائر ولا برضاها ، فاتجهت الانظار الى مصر كبرى الدول العربية . وفي غضون اسابيع قلائل تناقلت وكالات الانباء ان مصطفى النحاس باشا ، رئيس الحكومة المصرية كلف وزير العدل في حكومته ، المرحوم صبري ابو عزم باشا بان يلقي يوم 30 اذار سنة 1943 ، باسمه وبصفة رسمية ، البيان التالي :

« انني من قديم معنى باحوال الاسم العربية والمعاونة على تحقيق امالها في الحرية والاستقلال ، سواء في ذلك ، اكنت في الحكم ام خارج الحكم ، وقد خطوت في ذلك خطوات واسعة ، صادفها التوفيق بان اتجه نظام الحكم في بعض الاقطار العربية الاتجاه الشمسي الصحيح . ومنذ اعلن المستر ايدن تصريحه فكرت فيه طويلا ، وقد رايت ان الطريقة المثلى التي يمكن ان توصل الى غاية مرضية ، هي ان تتناول هذا الموضوع الحكومات العربية الرسمية ، وانتهيت من دراستي الى انه يحسن بالحكومة المصرية ان تبادر باتخاذ خطوات رسمية في هذا السبيل ، فتبدأ باستطلاع آراء الحكومات العربية المختلفة فيما ترمي اليه من امال كل على حدتها ، ثم تبدل جهودها للتوفيق والتقريب بين آرائها ما استطاعت الى ذلك سبيلا ، ثم تدعوهم بعد ذلك الى مصر معا في اجتماع ودي لهذا الغرض ، حتى يبدأ المسمى للوحدة العربية كجبهة متحدة بالفعل ، فاذا ما تم التفاهم او كاد ، وجب ان يعقد في مصر مؤتمر برياسة الحكومة المصرية لاكمال بحث الموضوع واتخاذ ما يراه المؤتمر من القرارات محققا ما تشده الامم العربية . »

ويمكن تفسير هذا الموقف السريع والحاسم الذي بادر الى اتخاذه مصطفى النحاس باشا من تصريح المستر ايدن ، بان مصر ارادت ان تدخل الى الحركة العربية من بابها الواسع ، وان يكون لها في هذه الحركة الدور الرئيسي الفعال ، فلا تترك ، لا للامير عبد الله ولا لنوري السعيد الاستقلال باخذ المبادرة في توجيه النشاط العربي سواء من الناحية القومية او من الناحية الرسمية ، وهذا ما يعنيه بالفعل ، تركيز بيان النحاس باشا على ان تتولى مصر بالذات الدعوة لعقد المؤتمر العربي في اراضيها وبرئاسة رئيس حكومتها دون سواه .

ونظرا لمكانة مصر في العالم العربي وفعاليتها في الميدان الدولي العالمي ، فان بيان النحاس باشا احدث تأثيره السريع لدى المحافل العربية ، فاستجابت له الحكومات العربية على الفور وكان اول المستجيبين الحكومة العراقية فاوفدت وزير داخليتها المرحوم تحسين العسكري ومعه جميل المدفعي احد رؤساء الحكومة العراقية السابقين لاجراء مشاورات رسمية مع الحكومة المصرية حول ما جاء في بيان النحاس باشا لاتخاذ الخطوات العملية التي من شأنها اخراج فكرته الى حيز التنفيذ . واتفق الطرفان ، مصر والعراق ، على توجيه الدعوة الى الحكومات العربية كي ترسل ممثلين عنها للمشاركة في هذه المشاورات في مؤتمر تحضيري ، يعقد لهذا الغرض في مدينة الاسكندرية . وقد رؤى الاقتصار يومئذ على الدول العربية المستقلة وكان عددها خمسة وهي : سورية والاردن والعراق ولبنان ومصر . وقد لبثت هذه الدول الخمس دعوة الحكومة المصرية لحضور هذا المؤتمر التحضيري وفي جملتها الاردن نفسه ، الذي ارسل موافقته في كتاب حمله الى النحاس باشا نوري السعيد باشا ، جاء فيه :
حضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا ، رئيس الوزارة المصرية الافخم
كتابي هذا الى مقامكم الرفيع مع حضرة صاحب الفخامة نوري باشا السعيد ، وقد زارنا بعمان وسيزور مصر ليرى رفعتكم في القضية العربية التي قد استرهمى افكارنا عنها علاوة على ما يعلم فخامتة من المبدأ القديم الذي سار عليه بيتنا في القضية العربية . واثنا لنشكر لرفعتكم على منلكم للاخذ باليد والعمل على التعاون الاخوي الواجب علينا جميعا في اقطارنا المحبوبة ، واثنا حين تكتب كتابنا هذا ، نتمنى لرفعتكم الصحة والعافية والتوفيق في جميع الاعمال . »

مؤتمر الاسكندرية التحضيري

استمر انعقاد المؤتمر الذي دعاه اليه النحاس باشا في مدينة الاسكندرية طوال المدة الواقعة ما بين 25 ايلول و 7 تشرين الاول من سنة 1943 . وفي نهايتها اصدر المؤتمر بيانا رسميا ، عرف فيما بعد باسم « بروتوكول الاسكندرية » ، وجاء في مقدمة هذا البيان :

« البنا للصلوات الوثيقة والروابط العديدة التي تربط بين البلاد العربية جمعا ، وحرصا على توطيد هذه الروابط وتدعيمها وتوجيهها الى ما فيه خير البلاد العربية قاطبة ، وصالح احوالها وتأمين مستقبلها وتحقيق امانها وادائها ، واستجابة للرأي العربي العام ، في جميع الاقطار العربية قد اجتمعوا (اي المؤتمر) بالاسكندرية بين يوم الاثنين 8 شوال سنة 1963 الموافق 25 سبتمبر 1943 ويوم السبت 20 شوال سنة 1363 الموافق 7 اكتوبر سنة 1943 في هيئة لجنة تحضيرية للمؤتمر العربي العام وتم الاتفاق بينهم على ما يأتي :

اولا : تؤلف جامعة الدول العربية من الدول العربية المستقلة التي تقبل الانضمام اليها ويكون لهذه الجامعة مجلس يسمى (مجلس جامعة الدول العربية) تمثل فيه الدول المشتركة في (الجامعة) على قدم المساواة وتكون مهمته مراعاة تنفيذ ما تبرمه هذه الدول فيما بينها من الاتفاقات وعقد الاجتماعات الدورية لتوثيق الصلات بينها وتنسيق خططها السياسية تطبيقا للتعاون فيها وصيانة لاستقلالها وسيادتها من كل اعتداء ، بالوسائل الممكنة والنظر بصفة عامة في شؤون البلاد العربية ومصالحها . وتكون قرارات هذا المجلس ملزمة لمن يقبلها ، فيما عدا الاحوال التي يقع فيها خلاف بين دولتين من اعضاء الجامعة ويلجأ فيها الطرفان الى المجلس لفصل هذا الخلاف ، ففي هذه الاحوال ، تكون قرارات (مجلس الجامعة) نافذة وملزمة ، ولا يجوز على كل حال الاتجاه الى القوة لفصل المنازعات بين دولتين من دول الجامعة ، ولكل دولة ان تعقد مع دولة اخرى من دول الجامعة او غيرها اتفاقات خاصة لا تتعارض مع نصوص هذه الاحكام او روحها . ولا يجوز في اية حال اتباع سياسة خارجية تضر بسياسة جامعة الدول العربية او اية دولة منها . ويتوسط المجلس في الخلاف الذي يفضي منه وقوع حرب بين دولة من دول الجامعة وبين اية دولة اخرى من دول الجامعة

او غيرها للتوفيق بينهما . وتؤلف منذ الآن لجنة فرعية من اعضاء اللجنة التحضيرية لامداد مشروع لنظام « مجلس الجامعة » وليبحث المسائل السياسية التي يمكن ابرام اتفاقات فيها بين الدول العربية . « وقد تضمن هذا البيان « البروتوكول » بالاضافة الى فقراته الاساسية قرارين خاصين ، احدهما عن لبنان والآخر عن فلسطين . ويمكن تلخيص المباديء العامة الواردة في هذا البروتوكول بما يلي :

« التعاون في الشؤون الاقتصادية والثقافية والاجتماعية وغيرها وتدعيم هذه الروابط في المستقبل » . وجرى التوقيع النهائي عليه في ادارة جامعة فاروق الاول بالاسكندرية يوم السبت 20 شوال سنة 1363 الموافق 7 اكتوبر سنة 1944 والذين وقعوا عليه هم :

من مصر :
مصطفى النحاس ، رئيس الحكومة
احمد نجيب الهلالي ، وزير المعارف العمومية
محمد صبري ابو علم ، وزير العدل
محمد صلاح الدين ، وكيل وزارة الخارجية
من سورية :

سعد الله الجابري ، رئيس الحكومة .
جميل مردم ، وزير الخارجية .
نجيب الامنازي ، امين السر العام لرئاسة الجمهورية
من الاردن :

توفيق ابو الهدى ، رئيس الحكومة
سليمان السكر ، سكرتير مالي وزارة الخارجية
من العراق :
حمدي الباجه جي ، رئيس الحكومة
نوري السعيد ، رئيس سابق للحكومة
ارشد العمري ، وزير الخارجية
تحسين العسكري ، وزير العراق المفوض بمصر .

من لبنان :
رياض الصلح ، رئيس الحكومة
سليم نقلا ، وزير الخارجية
موسى مبارك ، مدير غرفة رئيس الجمهورية

اجتماع القاهرة والقرار ميشاق الجامعة

ولما كان اجتماع الاسكندرية عبارة عن مؤتمر تحضيرى، والبيان الذى ائتيق منه عبارة عن بروتوكول امدادي ، فان الحكومات العربية التى شاركت فى هذا الاجتماع ووقعت البروتوكول ، كلفت من بينها لجنة فرعية لصياغة مشروع نهائي فى تنظيم المباديء التى تقوم عليها جامعة الدول العربية وهيكلها الاداري . وقد قامت هذه اللجنة بما عهد اليها وقدمت هذا المشروع بشقيه السياسى والاداري فى غضون مدة قليلة لم تتجاوز الاسابيع الثلاثة ، وفى 22 اذار سنة 1945 ، انعقد مؤتمر عربي عام اشترك فيه مندوبون رسميون عن الدول التى سبق لها ان وقعت على بروتوكول الاسكندرية من قبل ، وقد انضم الى المجتمعين فى هذا المؤتمر مندوبون عن المملكة العربية السعودية والمملكة المتوكلية اليمنية ، بعد جهود شخصية بذلها عبد الرحمن عزام باشا لدى المرحوم الملك عبد العزيز وال سعود الذى لم يكن فى ذلك الوقت على علاقة طيبة مع مصر والعراق لاسباب تاريخية معروفة .

وبعد ان ناقش المؤتمر فى القاهرة المواد التى عرضت عليهم، ادخلوا عليها بعض التعديلات التى راوها ضرورية لنجاح المؤسسة القومية التى يريدون تاسيسها ثم ذبلوا ما اتفقوا عليه بتواقيعهم . وكان ذلك فى قصر الزعفران بالقاهرة يوم الخميس 8 ربيع الثانى سنة 1364 الموافق 22 اذار سنة 1945 . وكانت الساعة الرابعة بعد ظهر ذلك اليوم ، بعد ان الفوا كلمة «بروتوكول الاسكندرية» ووضعوا مكانها عنوانا واخر وهو « ميشاق جامعة الدول العربية » . والذين وقعوا هذا الميثاق نيابة عن دولهم هم السادة :

عن سورية :

فارس الخوري ، رئيس الحكومة
جميل مردم ، وزير الخارجية

عن الاردن :

سمير الرفاعي ، رئيس الحكومة
سميد المفتى ، وزير الداخلية
سليمان النابلسى : نائب سر الحكومة

عن العراق :

ارشد العمري ، وزير الخارجية

علي جودت الايوبي ، وزير العراق المفوض
بواشنطن

تحسين المسكري ، وزير العراق المفوض
بمصر .

عن المملكة السعودية :

الشيخ يوسف ياسين ، نائب وزير الخارجية
خير الدين الزركلى ، مستشار المفوضية
السعودية بمصر

عن لبنان :

عبد الحميد كرامي ، رئيس الحكومة
يوسف سالم ، وزير لبنان المفوض بمصر

عن مصر :

محمود فهمى النقراشى ، رئيس الحكومة
محمد حسين هيكل ، رئيس مجلس الشيوخ
عبد الحميد بدوي ، وزير الخارجية
مكرم عبيد ، وزير المالية
عبد الرزاق السنهوري ، وزير المعارف
العمومية

عبد الرحمن عزام ، الوزير المفوض بوزارة
الخارجية

اما اليمن فقد ارسلت الى صنعاء نسخة الميثاق
حيث وقعها مندوب المملكة المتوكلية اليمنية وبذلك
تكون جميع الدول التى اشتركت فى مؤتمر القاهرة
قد وقعت ميشاق الجامعة بلا استثناء .

يوم 22 اذار سنة 1945 هو ميلاد جامعة
الدول العربية رسميا

تنص المادة العشرون من الميثاق ، وهى اآخر
مادة فيه :

« يصدق على هذا الميثاق وملاحقه ، وفقا للنظم
الاساسية المرعية فى كل من الدول المتعاقدة وتسدوع
وثائق التصديق لدى الامانة العامة . ويصبح
الميثاق نافذا قبل من صدق عليه بعد انقضاء خمسة
عشر يوما ومن تاريخ استلام الامين المام وثائق
التصديق من اربع دول . »

وقد نفذت الدول العربية المتعاقدة مضمون هذه
المادة خلال ايام متقاربة ، واودعت حكومات هذه

الدول وثائق التصديق على الميثاق حسب الترتيب التالي :

المملكة الأردنية الهاشمية	بتاريخ 10 نيسان 1945
المملكة المصرية	بتاريخ 12 نيسان 1945
المملكة العربية السعودية	بتاريخ 16 نيسان 1945
المملكة العراقية	بتاريخ 25 نيسان 1945
الجمهورية اللبنانية	بتاريخ 16 ايار 1945
المملكة المتوكلية اليمنية	بتاريخ 19 ايار 1945
الجمهورية السورية	بتاريخ 9 شباط 1946

وعلى هذا فإنه ابتداء من يوم 11 ايار 1945 أصبح ميثاق جامعة الدول العربية نافذ المفعول بشكل رسمي ، غير ان الرأي اتفق بالاتفاق على ان يكون يوم 22 اذار 1945 هو البعاد الرسمي لتأسيس الجامعة ، ذلك ان مندوبي الدول العربية المجتمعين في القاهرة وقعوا بمجموعهم تقريبا الميثاق في هذا اليوم .

ونظرا لاهمية هذا الحدث القومي في تاريخ الامة العربية ، فقد قررت جميع الدول المشتركة في الجامعة اعتبار هذا اليوم عيدا قوميا تعطل فيه سائر الدوائر والمؤسسات العامة في بلادها من كل عام .

خلاصة الميثاق

وميثاق جامعة الدول العربية يقع في عشرين مادة اتفق عليها جميع الذين وقعوا عليه لتكون قاسما مشتركا ضمن الحدود التي تواضعوا على التزامها فيما بينهم ، سواء في علاقاتهم بعضهم ببعض او في علاقاتهم مع غيرهم من الدول الاجنبية .

وقد عبرت المادة الاولى من هذا الميثاق عن طبيعة الجامعة واهراضها ومبادئها اذ نصت انه :

«تتألف جامعة الدول العربية من الدول المستقلة الموقفة على هذا الميثاق ، ولكل دولة عربية مستقلة الحق في ان تنضم الى الجامعة ، فاذا رغبت في الانضمام قدمت طلبا بذلك يودع لدى الامانة العامة الدائمة للجامعة ، ويعرض على المجلس في اول اجتماع يعقد بعد تقديم الطلب » .

كما نصت المادة الثانية على ان :

« الغرض من الجامعة توثيق الصلات بين الدول المشتركة فيها وتنسيق خططها السياسية تحقيقا لتعاون بينها وصيانة لاستقلالها وسيادتها والنظر

بصفة عامة في شؤون البلاد العربية ومصالحها .
كذلك من افراسها تعاون الدول المشتركة فيها تعاوننا وثيقا . بحسب نظم كل دولة منها واحوالها في الشؤون الآتية :

1 - الشؤون الاقتصادية والمالية ويدخل في ذلك التبادل التجاري والجمارك والعملية وامور الزراعة والصناعة .

2 - شؤون المواصلات ، ويدخل في ذلك السكك الحديدية والطرق والطيران والملاحة والبرق والبريد .

3 - شؤون الثقافة

4 - شؤون الجنسية والجوازات والناشيرات وتنفيذ الاحكام وتسليم المجرمين

5 - الشؤون الاجتماعية .

6 - الشؤون الصحية .

ملاحق الميثاق

ويعد ان عددت مواد الميثاق انواع النشاطات المختلفة التي تقوم بها الجامعة فان مندوبي الدول العربية الذين اشتركوا في اعداد الميثاق بصيغته النهائية ، كانوا حريصين على تضمينه ملحقا خاصا بقضية فلسطين قالوا فيه :

« منذ نهاية الحرب العظمى الماضية سقطت عن البلاد العربية المسلخة من الدولة العثمانية ومنها فلسطين ولاية تلك الدولة ، واصبحت مستقلة بنفسها ، غير تابعة لاية دولة اخرى ، واعلنت معاهدة لوزان ان امرها لاصحاب الشأن فيها . واذا لم تكن قد مكنت من تولي امورها ، فان ميثاق العصبة (عصبة الامم) في سنة 1919 لم يقرر النظام الذي وضعه لها الا على اساس الاعتراف باستقلالها . لوجودها واستقلالها الدولي من الناحية الشرعية امر لا شك فيه ، كما انه لا شك في استقلال البلاد العربية الاخرى . واذا كانت المظاهر الخارجية لذلك الاستقلال ظلت محجوبة لاسباب القاهرة ، فلا يسوغ ان يكون ذلك حائلا دون اشتراكها في اعمال مجلس الجامعة ، ولذلك ترى الدول الموقفة على ميثاق الجامعة العربية ، انه نظرا لظروف فلسطين الخاصة ، والى ان يتمتع هذا التطر بممارسة استقلاله فعلا ، يتولى مجلس الجامعة امر اختيار مندوب عربي من فلسطين للاشتراك في اعماله » .

اختيار القاهرة مقرا للجامعة

اما بصدد المكان الذي يتخذ مقرا رئيسيا لاقامة امين هام للجامعة بصورة دائمة مع الدوائر الادارية التي تتبع له مباشرة ، فقد رؤى ان يكون في مدينة القاهرة . وقد رومي في هذا الاختيار مكانة مصر في العالم العربي ، وهي المكانة التي تستمد قوتها ونفوذها من الامكانات الضخمة التي تتوفر لهذا القطر الكبير سواء بالنسبة لعدد سكانه او بالنسبة للظروف المعنوية التاريخية التي جعلت منه كيانا قوميا تكاملت له اسباب الزعامة الفكرية عن طريق ما فيه من المؤسسات العلمية الكثيرة، الى جانب الزعامة الدينية عن طريق وجود الجامع الازهر الشريف في ارضه . وعلى هذا فقد نصت المادة العاشرة من ميثاق الجامعة :

« تكون القاهرة المقر الدائم لجامعة الدول العربية ولمجلس الجامعة على ان يجتمع في اي مكان آخر يعينه » .

النص على مصرية الامين العام للجامعة

وتبعا لاختيار مدينة القاهرة مقرا دائما للجامعة، فان اعضاء مجلس الجامعة راوا ان يكون كذلك منصب الامين العام لهذه المؤسسة وقفا على واحد من المصريين ، لا ينازهمهم في ذلك غيرهم من الشعوب العربية . وقد اكد المجلس ذلك بالنص عليه في الملحق الذي اضافوه في آخر الميثاق وهو يقضي باسناد هذا المنصب الخطير الى عبد الرحمن عزام باشا نظرا لخبرته في الشؤون العربية وسابقته في خدمة العروبة في مختلف اقطارها وامصارها .

الفوارق الملحوظة بين بروتوكول الاسكندرية وميثاق القاهرة

وما دمنا قد تحدثنا فيما سبق عن ميثاق الجامعة بمواده وملاحقه ، فاننا لا نرى باسا من ان نتناول بكلمة عابرة الظروف والملابسات التي جعلت من هذا الميثاق يختلف في بعض مواد الرئيسية وملاحقه الاضافية عن البروتوكول الذي أصدره المؤتمر التحضيري في الاسكندرية عندما اجتمع في هذه المدينة بدفوة من مصطفى النحاس باشا رئيس الحكومة المصرية .

ولقد كان اختيار الشخصية العربية الفلسطينية موضوعا شائكا بالنسبة لامضاء الجامعة ، وذلك بسبب الاوضاع الصعبة التي كانت تعانيها فلسطين تحت وطأة الانتداب الانجليزي وهموم الخطر اليهودي الذي يهددها بالزوال من خريطة العالم العربي ، وكذلك بسبب غياب زعيمها سماحة السيد محمد امين الحسيني وصحبه من قادة النضال الفلسطيني ، في المعتقلات والمنافي السحيقة .

غير ان مجلس الجامعة رأى الخروج من هذا المأزق الحرج بتبني اقتراح قدمه السيد محمد صلاح الدين باشا . وهذا الاقتراح يقضي بتعيين السيد موسى العلمي ممثلا عن فلسطين في ذلك المجلس ، وكان الذي وجه نظر صلاح الدين باشا الى هذا الشخص الاستاذ محمد علي الطاهر المجاهد العربي المعروف . والسيد موسى العلمي الذي كان حينئذ مقيما بمصر هو من رجال فلسطين المثقفين الذين يتمتعون بسمعة مرموقة واسم طيب ، وكان يشغل في بلده فلسطين ايام الانتداب البريطاني وظيفة مساعد النائب العام .

موضوع الدول العربية غير المستقلة

وكذلك فان ميثاق جامعة الدول العربية لم يشأ ان يحصر اهتمامه بالدول العربية المستقلة ، بل انه تضمن الى جانب الملحق الخامس بفلسطين ، ملحقا واخر خاصا بالتعاون مع البلاد العربية فيير المشتركة في مجلس الجامعة بسبب وقوعها تحت السيطرة الاجنبية كي لا تحرم هذه الدول وما هو في حكمها من المساهمة في نشاطات الجامعة داخل لجانها المتعددة . وقد جاء في الميثاق في هذا الصدد انه: « نظرا لان الدول المشتركة في الجامعة ستباشر في مجلسها وفي لجانها شؤوننا يعود خيرها وانرها على العالم العربي كله ، ولان امانى البلاد العربية فيير المشتركة في المجلس ينبغي ان يراها وان يعمل على تحقيقها فان الدول الموقعة على ميثاق الجامعة العربية يعنىها بوجه خاص ان توصي مجلس الجامعة عند النظر في اشراك تلك البلاد في اللجان المشار اليها في الميثاق ، بان يذهب في التعاون معها الى ابعد مدى مستطاع ، وفيما عدا ذلك بان لا يدخر جهدا لتعرف حاجاتها وتفهم امانيتها وآمالها ، وبان يعمل بعد ذلك على صلاح احوالها وتأمين مستقبلها بكل ما بهيئة الوسائل السياسية من اسباب » .